## أولاً : أثرها في الفكر الإسلامي الحديث .

لعل الحديث عن أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي الحديث ـ بحد ذاته ـ يحتاج إلى رسالة مستقلة وعناية خاصة ودقيقة لطوله واتساعه من جهة ، ولأهميته وخطورته من جهة أخرى .

وليس في وسعنا ـ هنا ـ الإطالة في دراسة هذا الأثر فضلاً عن الإحاطة به والشمول واستقصاء جميع جوانبه ـ لما ذكرنا من طوله واتساعه ، وليس في وسعنا أيضاً أن لا نعرض إلى ذكر شيء من أطرافه ليتم بها عرض منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، ولهذا فإنا نرى ـ لزاماً ـ أن نشير إلى أبرز آثارها في بعض النواحي الفكرية :

### أ ـ ففي التفسير للقرآن الكريم : ـ

أخذ بعض من تناول تفسير القرآن الكريم بعض مبادىء هذه المدرسة وسار على نهجها في تفسيره سواء التزم الحدود التي حددوها أم تجاوزها إلى ما هو أبعد وأعمق ، فلقد كان تفسير القرآن الكريم تفسيراً يتلاءم مع كثير من المكتشفات العلمية الحديثة محل عناية واهتمام كبيرين من قبل رجال المدرسة العقلية وكان من أسس منهجهم في التفسير كما بينا هناك ، وفصلنا .

ولقد أخذ من بعدهم الشيخ طنطاوي جوهري وهو من المتأثرين

كثيراً بمحمد عبده ومن تلاميذه أخذ بهذا المنهج في التفسير وتوسع فيه وأطال وذهب يملأ تفسيره بكل ما توصل إليه العلم من مكتشفات حتى قال عنه بعضهم ما قيل في تفسير الرازي « فيه كل شيء إلا التفسير » وقال الشيخ محمد حسين الذهبي « بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به »[1] .

وأنت إذا نظرت إلى تفسيره وجدته يحمل الآيات مالا تحتمله ويدخل في تفسيرها من المكتشفات العلمية ما لم تشر إليه ويبرر هذا بأعذار واهية لا تقوم له بها حجة .

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . . ﴾[2] الآيات « وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه ، أن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً ثم بسائر أوروبا ثانياً »[3] وقال « ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته وكذلك حماره ، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم وعلم الله إننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة كأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير ، وإبراهيم وموسى ، فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم

---

(١) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٦٧ وما بعدها .

(٣) الجواهر في تفسير القرآن الكريم : طنطاوي جوهري جـ ١ ص ٨٤ .

فقلت ﴿ فَبِهدَاهُمْ إقْتَدِه ﴾[1] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] ونحوها من الآيات يقول « . . أوليس الإستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن »[3] .

لاشك أن هذا التفسير وأمثاله من أخطر التفاسير للقرآن الكريم بل هو تلاعب بالآيات وصرف لها عن حقائقها الثابتة إلى معان لا تثبت إلا بقدر ما تثبت مكتشفات علمية تهتز يمنة ويسرة بين الثبات والسقوط ـ هذا في الآيات التي قد يفهم منها ما أورده في تفسيرها فما بالك بما يورده من تفسير لا تحتمله الآي من بعيد ولا من قريب .

نحن ندرك أن هدفه من سلوك هذا المنهج هو نفس هدف رجال المدرسة العقلية في سلوكه حيث يقول الأستاذ الأكبر محمد المراغي عن أحدهم في تفسيره العلمي « وحمدت له هذه النزعة العلمية التي لو تحلى بها كل مبرز في فرع من فروع العلم لاجتمع لدينا ذخر عظيم من هذه التطبيقات الثمينة تستفيد منه النابتة الحديثة زيادة معرفة بإعجاز القرآن وإيقان بأن الله ما فرط في كتابه من شيء »[4] .

نحن ندرك أن هذا من أهدافه ولكن هذا لا يخوله حق تأويل الآيات على هذا النحو وإلى هذا الحد الذي تجاوز فيه حد الأمان والسلامة .

ولكن الذي تأثر بمنهج المدرسة العقلية الحديثة أكثر من هذا هو

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٩ .
(٢) سورة النور : من الآية : ٢٤ .
(٣) الجواهر : طنطاوي جوهري جـ ٣ ص ٩٩ .
(٤) الإسلام والطب الحديث : عبد العزيز إسماعيل تقديم محمد مصطفى المراغي ص ٥ و ٦ .

صاحب تفسير « الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن » وهو الشيخ أبو زيد الدمنهوري وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في المحيط العلمي وثورة ساخطة من شيوخ الأزهر على مؤلفه وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب والحكم على صاحبه بالزيغ والضلال[1] وقد عثرت على نسخة منه في إحدى مكتبات القاهرة.

ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى أهم ما ذهب إليه في تفسيره وأنت تدرك بعد هذا أثر المدرسة العقلية عليه : ـ

## إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام : ـ

حيث يقول « وأن آيتهم على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم وصلاح رسالتهم، وأنهم لا يأتون بغير المعقول ولا بما يبدل سنّة الله ونظامه في الكون»[2].

## معجزات عيسى عليه السلام :

يقول «﴿ كهيئة الطير ﴾ يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره»[3].

## معجزات موسى عليه السلام :

في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾[4] يقول « ويصح أن يكون

---

(١) الإتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم : محمد حسين الذهبي ص ٩٤.

(٢) الهداية والعرفان ص ٣٠٦.

(٣) الهداية والعرفان: ص ٤٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

الحجر اسم مكان واضرب بعصاك الحجر معناه : إطرقه ، واذهب إليه ، والغرض أن الله هداه إلى محل الماء وعيونه »[1] .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2] يقول « مثال من قوة حجته وظهور برهانه »[3] .

## معجزة إبراهيم عليه السلام :

في تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ . . . ﴾[4] يقول «معناه نجاه من الوقوع فيها»[5] .ثم يفسر معنى النجاة بأنه « أن الله نجاه بالهجرة وخيَّب تدبيرهم»[5] .

## الإســـراء :

ويفسر الإسراء بالرسول ﷺ أن المراد به هجرته من مكة وهي المسجد الحرام إلى مسجد المدينة وهو (المسجد الأقصى)[6] .

## تفسيره للملائكة والجن والشياطين : -

ويقول عن الملائكة ( الملائكة رسل النظام وعالم السنن وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له »[7] أما إبليس فهو « اسم لكل مستكبر على الحق ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو النوع المستعصي على الإنسان تسخيره »[7] .

---

(١) الهداية والعرفان: ص ١٣١ .
(٢) سورة الأعراف : الآيتين : ١٠٧ ـ ١٠٨ .
(٣) الهداية والعرفان: ص ١٢٦ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية : ٦٩ .
(٥) الهداية والعرفان: ص ٢٥٦ .
(٦) الهداية والعرفان: ص ٢١٩ .
(٧) الهداية والعرفان: ص ٧ .

**الحـــدود :**

وما دام باب الإجتهاد مفتوحاً وميسوراً ومادامت الشروط التي وضعها الفقهاء لبلوغ رتبة الإجتهاد إفتياتاً على الله ونسخاً لكتابه كما قال أصحاب المدرسة العقلية[1] فلا عجب أن يبادر أبو زيد الدمنهوري وغيره ممن استجاب لدعوتهم فيبدأ في « تطوير » الأحكام الشرعية وذهب فيها « مجتهداً » مذهباً عجيباً .

**حد السرقة :**

ففي تفسير قوله تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾[2] يقول « واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطي معنى التعود أي أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم ويظهر لك من هذا المعنى أن من يسرق مرة أو مرتين ولا يستمر في السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده لأن قطعها فيه تعجيز له ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه »[3] .

وإلى هذا ذهب من بعده المستشار مصطفى كمال المهدوي وأيد رأيه مصطفى محمود وزعم أن فيه التزاماً واحتراماً وأن فهمه جدير بالإستماع والتأمل والبحث ؟ !»[4]

وكذا الزاني والزانية عندهم يشترط أن يكونا معروفين بالزنا وكان من عادتهما وخلقهما فهما بذلك يستحقان « الجلد »[5] .

---

(١) أنظر الأساس العاشر من منهج المدرسة العقلية الحديثة وانظر تفسير المنار : جـ ١ ص ١١٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية : ٣٨ .

(٣) الهداية والعرفان: ص ٨٨.

(٤) مجلة صباح الخير العدد ١٠٩٣ في ١٦ ديسمبر ١٩٧٦ م مقال « قطع اليد في القرآن » مصطفى محمود .

(٥) الهداية والعرفان: ص ٢٧٤.

**تعدد الزوجات :**

ولا يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامى في حجره ، وأمن من نفسه عدم الجور[1] وهو ما ذهب إليه من بعده أيضاً المهدوي ومصطفى محمود[2] ، ولم يقل أحد بالشرط الأول مطلقاً ومن يطلع على سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط في التعدد[3] .

**الربا :**

ويجعل الربا المحرم شرعاً هو الربا الفاحش وبمعنى آخر الربح الزائد عن حده في رأس المال وتقدره كل أمة بعرفها»[4].

هذا بعض ما ذهب إليه هذا المفسر في تفسيره ، وما قصدنا من الإستطراد في ذكر أمثلة من تفسيره إلا لتتضح لنا صلته بالمدرسة العقلية وتأثره بما ذهبت إليه من آراء في معجزات الأنبياء عليهم السلام كافة ، ومن اجتهاد في غير محله ومن غير أهله في الشريعة الإسلامية ، وإنا لنعجب كيف قامت الصيحات والإحتجاجات على المؤلف حتى صودر الكتاب وحكم عليه بالزيغ والضلال وهو إنما يردد ما جاءت به المدرسة العقلية الحديثة إلا ما ندر وفي الوقت نفسه يلاقي تفسير أصحاب المدرسة الترحيب والقبول ؟ !

## ب - في القصة القرآنية :

في سنة ١٩٢٦م أصدر طه حسين كتابة في الشعر الجاهلي وقد جاء في ص ٢٦ منه : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا أيضاً ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي

---

(١) الهداية والعرفان: ص ٦١.

(٢) مجلة صباح الخير العدد ١٠٩٣ في ١٦ ديسمبر ١٩٧٦ م مقال « قطع اليد في القرآن » مصطفى محمود .

(٣) التفسير والمفسرون : جـ٣ ص ٢٠٩ .

(٤) الهداية والعرفان: ص ٥٣.

لإثبات وجودهما التاريخي »[1] ويقول في نفس الصفحة « . . فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل ابن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية من جهة أخرى ، والقرآن والتوراة من جهة أخرى . . »[2]

وفي عام ١٩٤٧م قدم الطالب محمد أحمد خلف الله من كلية الآداب بجامعة فؤاد رسالة للحصول على الدكتوراه بعنوان « الفن القصصي في القرآن الكريم » قرر فيها أن ورود الخبر في القرآن الكريم لا يقتضي وقوعه ، وأنه يذكر أشياء وهي لم تقع ويخشى على القرآن ( !! ) من مقارنة أخباره بحقائق التاريخ « إن التاريخ ليس من مقاصد القرآن وإن التمسك به خطر أي خطر على النبي عليه السلام وعلى القرآن بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة »[3] ويقول « إن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع وليست من مقاصد القرآن في شيء . . . إن قصد القرآن من هذه المعاني إنما هو العظة والعبرة . . . ومعنى هذا . . إن قيمتها التاريخية ليست مما حماه القرآن الكريم ما دام لم يقصده »[4] .

ويستند[5] فيما قال على ما جاء في المنار ( ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من

---

(١) ذيل الملل والنحل : محمد سيد الكيلاني ص ٤٨ عن ( في الشعر الجاهلي طه حسين ) .

(٢) ذيل الملل والنحل : محمد سيد الكيلاني ص ٨٤ عن ( في الشعر الجاهلي : طه حسين ) .

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ٤٢ .

(٤) المرجع السابق ص : ٤٤ .

(٥) المرجع السابق ص : ٤٢ .

حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره »[1] ويستدل بقول المنار « هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع »[2] وبقوله « بينا مراراً أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة الله فيهم وما تتضمنه من أصول الدين والإصلاح »[3] .

واستدل أيضاً بغير ذلك من نصوص المنار ، ومن هنا ندرك عمق الصلة بين هذا الموقف من قصص القرآن وموقف المدرسة العقلية الممثلة في تفسير المنار من قصص القرآن الكريم .

ثم يصل الدكتور خلف الله إلى نتيجة ما قرره من الفصل بين القصة القرآنية والحقيقة التاريخية فيصف القرآن بما وصفه به المشركون من أنه « أساطير » ويستدل على هذا بأن القرآن عرض مرة واحدة للرد على المشركين « في قيلهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[4] فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتبها وتملى عليه ويثبت أنها من عند الله ، قل أنزله الذي يعلم السر . . إلخ »[5] . ثم قال « وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على انه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله إذا كان هذا ثابتاً فإنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير لأنا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن »[5] .

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٧ .

(٣) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ١٢ ص ١٠١ .

(٤) سورة الفرقان : الآيتين ٥ و ٦ .

(٥) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١٧٨ ـ ١٨٠ .

ونذكر مثلاً من تطبيقه هذه النتيجة التي توصل إليها على قصص القرآن قوله : ـ « وإذا ما قال المستشرقون أن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير قلنا ليس في ذلك في القرآن من بأس فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى ويكفينا فخراً إن كتابنا الكريم قد سنّ السنن وقعّد القواعد وسبق غيره في هذه الميادين »[1] .

وزعم أيضاً أنه لن يجد من « يعارض في وجود القصة التمثيلية في القرآن الكريم وأنها وليدة الخيال وأن الخيال إنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه وجريهم في بلاغتهم عليه والله سبحانه وتعالى إنما يحدثهم من هذا بما يعتادون »[2] .

ويستدل[3] لإثبات هذه النتيجة التي توصل إليها بما جاء في المنار عن أحدى قصص القرآن « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم »[4] ويستدل[5] أيضاً بقول الشيخ محمد عبده « وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه أن القرآن كثيراً ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[6] فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الإستواء إلى

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١٨٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦٤ .
(٤) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٥٢ .
(٥) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .
(٦) سورة ق : الآية ٣٠ .

خلق السماء ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[1] والمعنى في التمثيل ظاهر »[2] .

ومن هنا ـ أيضاً ـ ندرك عمق الصلة بين الفكرتين فكرة خلف الله وفكرة الشيخ عبده وتلاميذه في قصص القرآن الكريم ولهذا حرص أمين الخولي المشرف على الرسالة المنحرفة على التصريح بأن جامعة فؤاد التي رفضت الرسالة المنحرفة هذه « ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ إثنين وأربعين عاماً »[3]

ولا شك بعد هذا أن هذا الزعم في قصص القرآن الكريم بأنها مخالفة لحقائق التاريخ وأن المراد بها التمثيل لا الحقيقة التاريخية لا شك أنه أثر من آثار مدرسة المنار ، كيف لا وهو إنما يستشهد بأقوال أستاذهم وإمامهم .

وسواء أكان الأستاذ الإمام يقصد ما قصده خلف الله أم لم يقصده فإن الصلة بين القولين ولا شك بينة وواضحة .

بقي أن نقول أن هذه الرسالة أيضاً لقيت ردود فعل قوية واحتجاجات الرفض حتى رفضتها الجامعة ، وفي الوقت نفسه كان الترحيب والقبول لما جاء به محمد عبده وتلاميذه ؟!

## جـ ـ في السنة النبوية : ـ

منذ صدع رسول الله ﷺ بما أمر ، وأعرض عن المسركين ، ومنذ أنذر عشيرته الأقربين وخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وقال أنا النذير المبين ، منذ ذلك الحين وأعداؤه وأعداء الدين ما فتئوا يكيدون للإسلام وأهله ويحاربونه بكل وسيلة وكل سبيل .

---

(١) سورة فصلت : الآية ١١ .

(٢) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ص ( ح ) .

زعموا ان القرآن أساطير ، وزعموا أن محمداً ساحر وشاعر وكاهن ، وزعموا أنه ﷺ « كذاب أشر » وزعموا أنه عبقري لا نبي ، وزعموا أن الإسلام مجموعة أفكار إصلاحية بشرية لا دين إلهي .

منذ ذلك الحين والدين الإسلامي في دوامة المعركة بين الحق والباطل بين حفظ الله ومكر الكافرين ، ويبتلي الله المؤمنين بين حين وآخر في ذلك الصراع بين ضعف المسلمين وقوتهم .

وكانت المؤامرات العدائية للإسلام تلبس لكل حالة لباسها فتسلك سبيل السلاح حين تضعف قوة المسلمين ، وتتخذ التخريب والتدمير والقتل شأنها من غير تفكير في إصلاح إعوجاج أو تعديل انحراف .

وإذا ما عجزت سبيل الحرب عن تحقيق أهدافها لبست لذلك لباساً آخر لباس الحرب الفكرية ، وهم يجمعون بين السبيلين في أحيان كثيرة فيشككون في القرآن وفي محمد وفي السنة وفي الإسلام كله ويبثون أفكارهم تلك بين نابتة المسلمين وغيرهم .

وتنشأ هذه النابتة على رفض الإسلام أو رفض شيء من تعاليمه وأفكاره ومبادئه ، لا تلبث أن تشتعل فيهم اشتعال النار في الهشيم فيكونون على الإسلام عبئاً أكبر من عبئهم ويحسب الجاهلون أن لا علاقة لأعداء الدين بهذا التشكيك والحرب من المنتسبين إليه ومن داخل حصونه .

ويزيد قوم الأمر سوءاً حين يقولون ما يتمسك به المنحرفون ، ويشد عضدهم ويفتح لهم سبلاً كانوا عنها غافلين .

قالوا أن قصص القرآن تمثيل وتخييل وجاء من يقول أنها أساطير مخالفة للواقع ، وقالوا أن الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه . . إلخ فجاء من يقول أن محمداً عبقري وأن القائلين بنبوته يكسبون بالإعتراف بعبقريته كسباً عظيماً ، قالوا إن حديث أبي هريرة الذي قال فيه كذا وكذا

لا يبعد أن يكون قد رواه عن كعب الأحبار أو وهب بن منبه فجاء من يسب أبا هريرة رضي الله عنه ، ويشتمه ويرفض أحاديثه كلها صحيحها وضعيفها ، قالوا إن السنة ليست ديناً إلا من حيث أنها مبينة للقرآن فجاء من ينكر السنة كلها ويرفضها .

لم يكن بين الفريقين كبير فارق في الزمن أو الفكرة بل كانوا من المعاصرين لهم وكانوا من الناشرين لأفكارهم الإلحادية المروجين لها بل والمشاركين في صياغتها .

ينشر الأستاذ محمد حسين هيكل كتابه « حياة محمد » ينكر فيه معجزاته ﷺ ويقدم للكتاب الشيخ محمد مصطفى المراغي ويقرظه السيد رشيد رضا ؟!

ويكتب محمد عبده كتاباً يذيله بإسم قاسم امين وينشره بين الناس يدعو فيه إلى ما أسماه تحرير المرأة ؟! ويشيد بهذا الكتاب رشيد رضا ويقرظه في كل سانحة في مجلة المنار .

وينكر الدكتور توفيق صدقي حجية السنة ويعلن عنوان مقاله « الإسلام هو القرآن وحده » وينشر له الأستاذ محمد رشيد هذا المقال في عددين من مجلته المنار السابع والثاني عشر من السنة التاسعة .

ويزعم في مقاله أن القرآن قد حوى كل شيء من أمور الدين ، وكل حكم من أحكامه وأنه بينه وفصله بحيث لا يحتاج إلى شيء آخر كالسنة وإلا كان الكتاب مفرطاً فيه ولما كان تبياناً لكل شيء .

ويلحد في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] فيزعم أنه تكفل بحفظ القرآن وحده دون السنة ولو كانت دليلاً وحجة كالقرآن لتكفل بحفظها ؟ !

---

(١) سورة الحجر : الآية : ٩ .

وجاء من بعده أحمد أمين صاحب كتب « فجر الإسلام ، وضحاه ، وظهره » تحدث في فجر الإسلام عن الحديث النبوي فمزج السم بالدسم وخلط الحق بالباطل كما يقول المرحوم مصطفى السباعي[1] .

زعم أن هناك أمـور كثيرة تضعف من حجية السنة منها أن الحديث لم يدون في عهد رسول ﷺ وزعم أنه نشأ عن هذا كثرة الوضع والكذب على الرسول ﷺ ساعد على ذلك كثرة دخول الشعوب في الإسلام ، وزعم أن علماء الحديث إنما اعتنوا بالسند ولم يعتنوا بنقد المتن عشر عنايتهم بالسند ثم شكك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي حفظه ؟!

وأنت قد لا تجد في كلامه نصاً صريحاً واضحاً في إنكار حجية السنة فهو أدهى من أن يظهر هذا بل يرشد من يريد إنكار حجية السنة إلى السبيل لذلك فيقول للدكتور علي حسن عبد القادر « أن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة ، فخير طريقة لبث ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألا تنسبها إليهم صراحة ولكن إدفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك وألبسها ثوباً رقيقاً لا يزعجهم مسها ، كما فعلت أنا في فجر الإسلام ، وضحى الإسلام » هذا ما قاله الدكتور علي حسن نفسه للمرحوم مصطفى السباعي[2] .

وقد نشر اسماعيل أدهم رسالة سنة ١٣٥٣ هـ زعم فيها أن الأحاديث التي تضمنتها كتب الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم بل هي مشكوك فيها ويغلب عليها صفة الوضع ، وثارت حول هذه الرسالة ضجة انتهت بمصادرتها ودافع أدهم عن نفسه بأن ما قاله قد وافقه عليه كبار أدباء وعلماء ذكرمنهم أحمد أمين ، ولم يكذب أحمد أمين ما قال هذا بل كتب ما يفيد تألمه مما حصل لصاحبه واعتبار ذلك محاربة لحرية الرأي ، وحجر عثرة في سبيل البحوث العلمية[3] .

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : مصطفى السباعي ص ٢٣٦ .
(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : مصطفى السباعي ص ٢٣٨ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

وفي عام ١٣٧٧ هـ الموافق ١٩٥٧م ظهر كتاب جديد وأعني بالجديد فيه ذلكم الأسلوب الذي نهجه صاحبه وما رأيت مثله ؟! رجل يحمل معول هدم السنة ينكر أحاديثها ويلقي أفظع السباب والشتائم على ناقلها الأول أبي هريرة رضي الله عنه ثم يزعم بعد هذا أنه يدافع عن الحديث ؟!

أما المؤلف فمحمود أبو ريّه ، وأما الكتاب فـ « أضواء على السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث » ؟

ومن التوافق العجيب أن الذي قدم لهذا الكتاب الذي أنكر حجية السنة هو الذي أنكر صدق قصص القرآن وأنكر حجيته فيما يخبر به ـ كما مر بنا ـ وأعني به طه حسين .

أنكر محمود أبو ريه حجية السنة وإذا ما قال له قائل كيف تنكر حجية السنة وأنت تستدل على ما ذهبت إليه بأحاديث منها ؟ أجاب « أن الأحاديث التي أوردها في سياق كلامي للإستدلال بها على ما أريد في كتابي إنما أسوقها لكي نقنع من لا يقنع إلا بها على اعتبار أنها عنده من المسلمات التي يصدقها ولا يماري فيها « ويشبه أسلوبه هذا باحتجاج » المسلم على النصراني بما في الإنجيل وهو في نفسه غير مؤمن بما يحتج به أو عكس ذلك[1] ؟!

ثم يأتي بعد هذا بقواعده التي أراد بها أن يأتي « بجديد » يفوق به قواعد علماء الحديث السابقين ؟! ويعدّل به ما أعوج من قواعدهم ؟ قال بعد كلامه السابق « أعلم أن ذلك ليس عاماً في كل ما أورده من أحاديث في كتابي فإن منها ما يبدو عليه علائم الصحة كأن يكون بياناً للقرآن الكريم أو متفقاً مع العقل السليم ، أو جاء على مقتضى الأصول التي قام عليها الدين وإليها قامت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، أو أتنور خلال معانيه شعاعاً من نور النبوة ، ولو كان خافتاً ضئيلاً ـ وهذا أمر أحسه بوجداني فما كان من مثل ذلك مما يطمئن به القلب ويسلم به العقل فأنا آخذ به وأرويه وأنا

---

(١) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٣ .

**مطمئن ، واعتبره من بيان الرسول للكتاب العزيز وإن كنت على ثقة بعد ذلك كله من أنه أحاديث آحاد وأنه ظني الدلالة بحيث لا يبلغ منزلة القطع الذي يفيد اليقين وأن روايته جاءت « بالمعنى » لا بأصل اللفظ الصحيح الذي نطق به النبي ﷺ »**[1] .

بقي أن أقول أن قواعده تلك لا تقوم بها حجة على صحة الحديث فقد يكون في الحديث بيان للقرآن الكريم ولا يلزم من هذا صحة هذا الحديث وقد يتفق الحديث مع العقل السليم وقد يأتي حديث على مقتضى الأصول التي قام عليها الدين وإليها قامت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ولا يلزم أن يكون الرسول قد قاله ؟ وليس هذا كله بالأمر الذي يحتاج إلى مزيد علم لإدراكه ، ولكنه الضياع يعمي الأبصار عن الحقيقة .

وحتى ندرك منه ضلال منهجه في نقد الحديث نسوق قوله « ومن الأحاديث ما تقتضي البداهة بصدقه كحديث « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن »[2] ؟! ولست أنكر هنا صحة الحديث أو غيرها وإنما أنكر أن تكون « البداهة » مما تقتضي صحته ؟! وأي بداهة تنكر أن يبيح الرسول ﷺ كتابة حديثه ؟!

وحتى ندرك منه غرضه في وصف هذا الحديث بأن « البداهة » تقتضي صحته نكمل قوله « وهو الحديث الذي بنينا عليه كتابنا هذا »[2] وبه يتضح هدفه ؟! .

وحتى ندرك أيضاً الصلة التي تربطه برجال المدرسة العقلية الحديثة وتأثره بهم فيما ذهب إليه نقول أنه كثيراً ما يسوق نصوصهم ويستشهد بها في التقليل من شأن حجية السنة أو التجريح بصحابي جليل ، وحينما عاب عليه طه حسين كثرة نقله عن رشيد رضا أجاب بأنه لم يصنع ذلك « عفواً أو فقراً من الأدلة »[2] وإنما كان يقصد من ذلك أموراً مهمة ، « منها أن هذا السيد يعتبر

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٤ ـ ٣٥ .

في هذا العصر من كبار أئمة الفقهاء المجتهدين عند أهل السنة الذين يعتد برأيهم . . الخ »[1] « وأنه بلا منازع شيخ محدثي أهل السنة في عصرنا بحيث يعلم من أمر الأحاديث التي حملتها الكتب المشهورة لدى الجمهور ويدرك ما اعتراها من فعل الرواة وغير ذلك مما يتصل بكتابي ما لم يعلم مثله سواه »[1] « على أنه فوق ذلك ورث علم الأستاذ الإمام محمد عبده وناهيك به علماً وفضلاً بحيث لا يختلف اثنان في أنه من كبار أئمة الدين المجتهدين فما يقوله السيد رشيد إنما أعتبره كأنه صادر عن أستاذه الإمام وذلك فيما أرى أنه ن منهج الأستاذ الإمام وأسلوبه في النظر إلى الدين »[2] وفوق هذا وذاك فهو يكتب عن السيد رشيد بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته ويسميه « شيخنا » ويردد هذه العبارة[3] .

أذن فهو يستند فيما ذهب إليه إلى أقوال أئمّة رجال المدرسة العقلية الحديثة الأستاذ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد ، ويحسب قوله بعد هذا فوق الشبهات !!

وكأن خداع العناوين مرض انتقل من أبي ريه في زعمه الدفاع عن الحديث النبوي في عنوان كتابه إلى المدعو « السيد صالح أبو بكر » فنشر كتاباً زعم أنه « الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها » زعم فيه أن من أهدافه « تقديم حصيلة الفحص الدقيق للأحاديث المعارضة للقرآن ، والمنافية لما يليق بالله وبرسوله والتي جمعناها من صحيح البخاري باعتباره عمدة المراجع في هذا المجال وعددها مئة وعشرون حديثاً والتعقيب القرآني على كل منها بما يثبت أنها دخيلة على كلام النبي ﷺ »[4]

---

(١) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو ريه ص ٣٥ .

(٣) مجلة الرسالة اغسطس ١٩٤٠ م مقال السيد رشيد رضا بقلم محمود أبو ريه ص ١٣٥٥ .

(٤) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها : السيد صالح أبو بكر ص ٣ ـ ٦ .

وعدّ من أهدافه « القضاء على منازعة الحديث الباطل للقرآن الكريم »[1] ومنها « ادراك العواقب المترتبة على ترك الأحاديث المخالفة للقرآن الكريم دون تجريح وإظهار لعيوبها »[1] و « إثبات أن دين الله هو القرآن بداية ونهاية »[1] وقال أخيراً « كتابنا هذا يستند إلى كتاب الله نصاً ومعنى »[1] .

والحق أننا في حاجة ماسة إلى مثل هذه الأهداف والحق أيضاً أن هذا الرجل بعيد كل البعد عن المنهج الذي زعم بل عماد نقله وأسّه محمود أبوريه السالف ذكره فهو كثيراً ما ينقل عنه بل نستطيع القول أن الجزء الأول منه خلاصة لكتاب أبي ريه ، ثم أراد المؤلف منافسة أبي ريه على مناهله الأولى فنقل أيضاً عن محمد عبده وعن رشيد رضا وغيرهم من مدرسة المنار .

بل إن بدء هجومه على أبي هريرة رضي الله عنه يصدره برأي مدرسة المنار فيضع عنواناً « أبو هريرة ورأي علماء الحديث فيه ممثلاً في مدرسة المنار »[2] .

وقد خصص المؤلف الصفحات من ٥٨ إلى ٦٣ للتشكيك في أبي هريرة رضي الله عنه وفي روايته .

وإن شئت مثالاً من الأحاديث المئة والعشرين التي كذبها المؤلف من صحيح البخاري وأسلوبه في التكذيب ، حتى تدرك بعد منهجه عن عنوان الكتاب «الأضواء القرآنية» وعن أهدافه التي زعمها فإليك واحداً منها .

ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما « قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال أني لأنذركموه وما من نبي إلا أنذره قومه ، لقد أنذر نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه :

---

(١) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها : السيد صالح أبو بكر ص ٣ ـ ٦ .

(٢) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها . سيد صالح أبو بكر ص ٥٨ .

تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور » رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ .

أتدرون ماذا قال المؤلف بعد أن نقله نقلاً غير ملتزم بألفاظه كما هو شأن علماء الحديث الصالحين أتحسبون الرجل استند إلى ضوء آية قرآنية واحدة في رد الحديث فضلاً عن التزام « الأضواء القرآنية » !! لا لا ليس الأمر كما تحسبون . بل قال « ودلائل الزيف في هذا الحديث وغيره من أحاديث الدجال كلها نقول فيها ما يلي : -

أولاً : إن المسيخ الدجال هو كل مبدل وكل ماسخ لجمال الحق . . . وأن هذا المسيخ ليس رجلاً واحداً فقط ولكنهم كثيرون وهم عور وغير عور يعيشون معنا وأناس منا وكانوا مع من قبلنا وسيكونون مع من بعدنا وفي كل زمان ومكان . . وليسوا مسيخاً واحداً كما يقول الحديث .

ثانياً : إذا كان المسيخ سيظهر في آخر الزمان فقط . . فمن هو المسيخ الدجال الذي كان سبباً في ظهور الفساد والفتن في عهود الخلفاء وزمن التابعين بل زماننا هذا .

ثالثاً : إذا كان المسيخ الدجال رجلاً واحداً ولا يأتي إلا في آخر الزمان فمن أي مسيخ كان يتعوذ النبي ﷺ هو وأصحابه والتابعين . . ومن أي مسيخ نتعوذ نحن الآن في نهاية كل صلاة كما علمنا النبي ﷺ ؟؟

رابعاً : . . بأي عقل نصدق أن يعطيه الله كل هذه الأسباب ثم يأمرنا بمحاربته أو يلوم أتباعه وقد أعطاه من وسائل الإغراء والإقناع للناس ما لا يعطي الأنبياء والمرسلين .

خامساً : في هذا الحديث أن النبي ﷺ يقول أن المسيخ الدجال رجل أعور وإن ربكم ليس بأعور فكيف يعقل أن تجري هذه الألفاظ على لسان النبي ﷺ وأن تكون ألفاظه قد وصلت إلى هذا النقص في التعبير عن

ذات الله وأن يتكلم عن خالقه بتلك الصورة المذرية الركيكة .

سادساً : كيف أنذر نوح قومه من المسيخ الدجال كما يقول الحديث مع أن الأحاديث التي وردت فيه تقول كلها أن المسيخ سيأتي في آخر الزمان »[1] .

وليس هدفنا هنا أن نرد على شبهه ونبطلها فليس هذا موضعه وإنما أردنا أن نظهر أسلوبه في النقد وأن أدلته تلك ليست أضواءاً قرآنية كما زعم ولم يستند فيها إلى أية آية قرآنية بل كلها شبه من فكره ومن مفهومه الضال الذي لم يستند إلى كتاب ولا إلى سنة أيضاً .

وليس هذا الأمر في هذا الحديث فحسب بل هو في كل الأحاديث التي أوردها لم يستدل فيها بآية قرآنية إلا آية تعرض عرضاً في حديثه وليس فيها من معارضة الحديث شيء .

إذن فلا عجب إذا ما أكثر النقل عن محمود أبو ريه وعضّ على أقواله بنواجذه ولا عجب أيضاً أذ ما استند إلى أقوال محمد عبده ورشيد رضا بل إلى مدرسة المنار .

## د ـ في الفقه :

أما فتح باب الإجتهاد وشروطه التي جاءوا بها فقد نفذ منها كل من هب ودب وأفتى في الأحكام الشرعية من غير تردد أو خوف أو وجل ، وحكم في قضايا لو عرضت على مالك لقال « لا أدري » ولو عرضت على عمر لجمع لها أهل بدر .

ولا نريد أن نذكر كلّ ما جرى بعدهم من اجتهادات فقهية خارجة عن نطاق الإجتهاد وحدوده ولا يصل إلى مرتبته مصدروها ـ ولكن نقصر الحديث

---

(١) الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية : السيد صالح أبو بكر ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

هنا على واحدة من تلك الإتجاهات الفقهية المنحرفة .

ونحن وإن كنا لا نزعم أن كل انحراف في تقنين الأحكام الشرعية وميل بها عن الحق أنه أثر من آثار المدرسة العقلية إلا أننا نؤكد أن كثيراً من ذلك يستند إلى آرائهم ويستدل بأقوالهم ويستشهد بها وما هذا إلا معيار لتأثرهم بها ، نذكر من هذا مسألة تعدد الزوجات دع عنك تحرير المرأة وخروجها إلى العمل واختلاطها بالرجال في ميادينه . . الخ .

وقد سبق للشيخ عبده أن دعا إلى تطبيق ما ذهب إليه في مسألة تعدد الزوجات ونحن نذكر دعوته هنا حتى ندرك أن ما حدث بعد إنما هو من آثاره ومدرسته قال : ـ « لا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصاً الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة »[1] .

إذن فهو يدعو إلى تغيير الحكم ؟! ترى هل يدعو إلى تغييره دفعة واحدة أو بطريقة أخرى ؟! يفسر هذا تلميذه السيد رشيد بقوله « إن قاعدة اليسر في الأمور ورفع الحرج من القواعد الأساسية لبناء الإسلام ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر ﴾[2] و ﴿ ما يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيكُمْ مِنْ حَرَجْ ﴾[3] ولا يصح أن يبني على هذه القاعدة تحريم أمر تلجىء إليه الضرورة أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة . . وهو مما يشق امتثاله دفعة واحدة لا سيما على من اعتادوا المبالغة فيه كتعدد الزوجات كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس وشأنهم فيه على ما فيه من المفاسد فلم يبق إلا أن يقلل العدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط إنتفاء الخوف من عدم العدل بين

---

(١) تفسير المنار : محمد رشيد رضا جـ ٤ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة: الآية ٦ .

الزوجات وهو شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له أن أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير أسلامي »[1] ؟!!

إذن فليس الأمر في المنع « دفعة واحدة » لأنه يشق على من اعتادوا المبالغة فيه والحل أن يقيد بقيد ثقيل . . وهو شرط يعز تحققه . . ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي .

وليس المانع من إلغاء التعدد دفعة واحدة « أمر شرعي وإنما المشقة على من اعتادوا المبالغة فيه ، والعلاج التدرج في ذلك إلى أن يصل الأمر إلى إعتياد الناس على عدم التعدد ولا يشق على أحد إلغاؤ ه ومن ثم إلغاء التعدد .

لن أذكر هنا أثر تلك الدعوة على الأفراد في أقوالهم ودعواتهم لأنها كلها تنتهي إلى الدعوة إلى تطبيقه وتقنينه وإذا ما اكتفينا بذكر القوانين التي سنتها بعض الدول المسلمة في ذلك نكون قد تجاوزنا آراءهم إلى النتيجة والنتيجة هدفنا من الإشارة إلى الأثر .

وفي الواقع أن الدول التي تأثرت بهذه الدعوة انقسمت إلى قسمين ولا يزال بعضها في مرتبة « قيد ثقيل يعز تحققه . . ومن لم يلتزمه فزواجه غير « إسلامي » ، واستطاع بعضهم أن يصل إلى مرتبة « دفعة واحدة » .

أما القسم الأول فدول المغرب وسوريا والعراق قيدته المغرب قضائياً بالعدل بين الزوجات ، وقيدته سوريا بالقدرة على الإنفاق ، وقيد في العراق بمصلحة مشروعة وبالعدل بين الزوجات ، وبالقدرة على الإنفاق عليهن .

« وورود أحد هذه القيود في القانون معناه أنه أصبح ملزماً ويتعين على القاضي أن يتحقق من توافره بحيث إذا لم يكن هذا الشرط متوافراً أو ذاك كان تعدد الزوجات غير جائز، لأن المفروض أن أحكام القانون جميعها ملزمة

---

(١) تفسير المنار : جـ ٤ ص ٣٥٩ .

ويحمل الناس على احترامها وتطبيقها طوعاً أو كرهاً »[1] .

أما التي أخذت بالطريقة الثانية فتونس فمنعت تعدد الزوجات ومن تزوج بأكثر من واحدة يستوجب عقاباً بالسجن مدة عام وبخطيه ( أي غرامة ) قدرها ( ٢٤٠,٠٠٠ ) فرنك أو بإحدى العقوبتين فقط « ( الفصل ١٨ ) »[2] .

أما في مصر فقد شكل بعض تلاميذ محمد عبده لجنة سنة ١٩٢٦م اقترحت تقييد تعدد الزوجات وقدمت المقترحات لمجلس النواب وبعد مناقشات أعيدت لوزارة العدل لدراستها ثم صدر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩م منظماً لبعض شؤون الأسرة خالياً من مقترحات تقييد تعدد الزوجات[3] وفي سنة ١٩٤٥م تقدمت وزارة الشؤون الإجتماعية بمشروع قانون لتقييد تعدد الزوجات بإشتراط إذن القاضي الشرعي الذي في دائرة اختصاصه مكان الزواج ، واشتراط أن لا يأذن القاضي إلا بعد الفحص والتحقق من أن سلوكه وأحوال معيشته يؤمن معها قيامه بحسن المعاشرة ، والإنفاق على أكثر من في عصمته ومن تجب نفقته عليهم من أصوله وفروعه ، ولم يكتب لهذا المشروع النجاح[3] .

وقامت بعض الدعوات لاشتراط أن يكون جواز التعدد في حالتين ، حالة مرض الزوجة مرضاً لا برء منه ، وحالة عقم الزوجة الذي مضى عليه أكثر من سنوات ثلاث ومنع ما عدا هاتين الحالتين ودعوا فيما دعوا إلى عدم سماع الدعوى في نزاع يتعلق بالزواج « المتعدد إلا إذا كان بإذن القاضي وقد رفضت جبهة علماء الأزهر هذا الإقتراح .

وزعم المدعو عبد العزيز فهمي باشا أن القرآن الكريم يحرم بتاتاً

---

(١) تعدد الزوجات : عبد الناصر توفيق العطار ص ٢٥٧ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٦٢ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

تعدد الزوجات ؟! فالآية في زعمه واضح لكل متذوق أنها هزء وسخرية ممن يريد تعدد الزوجات لأن المولى سبحانه وتعالى أردفها بقوله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ وقوله في موضع آخر ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ولـن كما يقرر النحاة هي أشد أدوات النفي للمستقبل إذ تنفيه نفياً باتاً »[1] .

وحتى نكشف مغالطة الرجل نقول أن استدلاله هنا كمن يستدل بقوله تعالى ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ ﴾[2] ويدع ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾[2] ولو أحسن الإستدلال وطلب الحقيقة لأكمل ما استدل به ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[3] فقوله سبحانه ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا ﴾ ﴿ غَـفُـوراً رَحِيماً ﴾ كلها تبين المراد من نفي الإستطاعة بياناً لا يريده فهمي باشا ولهذا قطع الآية .

وأما الإستدلال بما قرره النحاة فهو تحريف لقولهم ولا يستغرب ممن كذب على القرآن أن يكذب على النحاة ؟ لم يقل النحاة بأن النفي بلن نفياً باتاً أي دائماً إلا الزمخشري المعتزلي قال ذلك ليؤ بد النفي في قوله تعالى لموسى ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾[4] حتى يستدل بها على إنكار رؤية الله التي لا يؤمن بها المعتزلة ، والنحاة ـ سواه ـ على الضد من ذلك فقد قال ابن مالك :

ومن رأى النفي بلن مؤبـداً فقـولـه أردد وسـواه فاعضدا[5]

---

(١) مع المفسرين والكتاب : أحمد محمد جمال ص ٢٠٨ .

(٢) سورة النساء : من الآية : ٤٣ .

(٣) سورة النساء : من الآية : ١٢٩ .

(٤) سورة الأعراف : من الآية : ١٤٣ .

(٥) الكافية الشافية : لابن مالك جـ ٣ ص ١٥١٥ الطبعة الأولى ، جامعة أم القرى.

نعدّ الحديث بعد هذا إلى شيخ أزهري هو الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، والأزهريون متهمون بالجمود والتزمت وهما صفتان أوحى بهما الإستعمار إلى شباب المسلمين حينذاك لينفروا من الأزهر وشيوخه ثم ينفروا من الدين كله بالتبع ، أراد هذا الشيخ أن ينفي هذه التهمة فأخطأ الطريق ـ وما هكذا تورد الإبل يا سعد ـ تقرب إليهم بالدعوة إلى تحريم تعدد الزوجات ؟! أليست هذه الصفة من مآخذ الإستعمار على الإسلام ؟!

أيّ طريق يسلك إلى ذلك ؟ استمداد ذلك من آية إباحة التعدد كما فعل عبد العزيز فهمي أمر قد سبق إليه ، وهو يريد أن يأتي بجديد فقال « لا ينكر أحد أن ينقلب المباح حراماً إذا نهى عنه ولي الأمر لمصلحة تقتضي النهي عنه كأن ينهي عن زرع القطن في أكثر من ثلث الملك فتجب طاعته شرعاً في ذلك وتحرم مخالفته فيه . . . وكذلك الأمر في تعدد الزوجات فلولي الأمر أن ينهي عنه إذا أساء المسلمون استعماله فيصير حراماً لنهيه عنه وإن كان في ذاته مباحاً وهذا أمر معروف بين العلماء »[1] ؟! وهو حينما يقول هذا يؤكد أن المسلمين قد أساؤوا استعماله ويرشد إلى الطريق السليم لتحريم التعدد كما أرشد إليه سلفه محمد عبده وتلاميذه قال الشيخ عبد المتعال « ولعل مما يدعو إلى هذا أن الناس لم يتهيئوا بعد لفهم هذا الحق بل يعدوه خروجاً على الدين ، فيحمل هذا ولي الأمر على أن يستثنى في ذلك ما يستثني ، ولا يذهب فيه إلى آخر ما جعله الله من حقه »[1] .

لذلك فلا عجب أن يقول الدكتور عفت محمد الشرقاوي معلقاً على ما ذهب إليه عبد العزيز فهمي ونعمّ به عبد المتعال « ومع ما يبدو في هذا من الغرابة والتجوز في الإستنتاج ، وخروجه عن مألوف المأثور ، فإنه

---

(١) مجلة الرسالة : العدد ٧٧٣ السنة ١٦ ابريل ١٩٤٨ م ص ٤٨٩ ـ عبد المتعال الصعيدي .

كان النتيجة الطبيعية لشدة تأثرنا بالنظم الأوروبية في تشريع الزواج . . . وكان ذلك في جملته تطوراً واضحاً لنزعة قديمة حمل لواءها « محمد عبده » محاولاً التوفيق بين النص القرآني وهذا التصور الجديد »[1] .

كانت هذه هي الحال إلى سنة ١٩٦٧ م ففي هذه السنة صدر قانون الأسرة في مصر والجديد الذي جاء فيه ما نصت عليه المادة (١٣٤) :

أ ـ للزوجة التي تزوج عليها زوجها وأن لم تكن قد اشترطت عليه في العقد ألا يتزوج عليها أن تطلب التفريق بينها وبينه وفي مدى شهرين من تاريخ علمها بالزواج ما لم ترض به صراحة أو دلالة .

ب ـ ويتجدد حقها في طلب التفريق كلما تزوج بأخرى .

جـ ـ وإذا كانت الزوجة الجديدة قد فهمت من الزوج أنه غير متزوج بسواها ثم ظهر أنه متزوج فلها أن تطلب التفريق .

كما نصت هذه المادة على أن « التفريق للزواج بأخرى طلاق بائن »[2] . وهذا ولا شك « قيد ثقيل يعز تحققه . . » ؟ !

والإتجاه العام إلى تقييد تعدد الزوجات سائر على منهج مدروس وقد بدأت بعض السلطات في بعض البلدان الإسلامية في اصدار قوانين تحرم من يعدد زوجاته من بعض الحقوق أو المزايا التي يتمتع بها سائر المواطنين كحرمانه من الإشتراك في نقابة أو ناد معين أو قصر الإعارة للخارج على المتزوجين بواحدة أو السماح بالعلاج المجاني لزوجة واحدة أو قصر الإعفاء الضريبي على المتزوجين بواحدة[3] ونحو ذلك .

وهذا كله ولا شك في سبيل « تقييد تعدد الزوجات بقيد ثقيل . . يعز تحققه ـ ومن لم يلتزمه فزواجه غير « إسلامي » « والإنتقال بعد هذا

---

(١) الفكر الديني في مواجهة العصر : عفت الشرقاوي ص ٢٣٧ .

(٢) تعدد الزوجات : عبد الناصر توفيق العطار ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢٠ .

إلى الخطوة الأخرى « منع تعدد الزوجات » دفعة واحدة » وبهذا لا يشق هذا الأمر على « من إعتاد على تعدد الزوجات »؟! .

**هـ ـ في السياسة : ـ**

عمى الألوان مرض يصيب البصر لا يستطيع صاحبه التفريق أو التمييز بينها ، وأحسب أن عمى الألوان هذا يصيب البصيرة فلا يستطيع صاحبه أن يفرق بين دين ودين ، ومنهج وآخر .

نظرت طائفة من المسلمين أو من المنتسبين للإسلام إلى ما حدث في أوروبا في العصور الوسطى ، وإلى ما حدث من صراع هناك بين الدين والعلم ، بين الدين والسياسة ، بين الدين والدولة ، نظروا إلى « رجال دين » يستندون إلى كتب « محرفة » وما فيها يخالف حقائق العلم ونظرياته ، أضف إلى هذا تشدد أولئك « رجال الدين » في مواجهة خصومهم .

ليس هناك مجال آخر دين محرف أقواله تصادم حقائق علمية ، ورجاله متصلبون متشددون ، فكان لا بد من قيام ثورة للفصل بين الدين والدولة ، بين الدين والسياسة بين الدين والعلم ، فعزلوا الدين وأقصوه .

حسب من أصيب بعمى البصيرة أن كل دين كهذا الدين المحرف ، فأراد من ينتسب إلى الإسلام منهم أن يطبق تلك الثورة على دينه الذي ينتسب إليه ـ إما عن جهل منه واما عن خبث فيه ـ فدعوا إلى فصل الدين عن الدولة ، وجعل الدين مجرد عبادة تؤدى في المسجد فإذا خرجت إلى الشارع فقد تعدت حدودها وتجاوزت مراسيمها ووجب عقابها وقمعها .

فليبق الدين في المسجد ؟!

ولتبق الوطنية والقومية . . الخ في الشارع ، وليسرح الناس وليمرحوا حسب نظامهما ، دينهم الوطن وعقيدتهم القومية .

وكان من السابقين السابقين إلى هذه الدعوة الشيخ محمد عبده حيث قال « أن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه »[1] والشيخ نفسه هو الذي صاغ برنامج « الحزب الوطني » المصري وجاء فيه « الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني[2] فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذاهب ، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه »[3] ودافع عن القبط في مصر قائلاً « ليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن أو ينسبوها إلى شائن من العمل تعللاً بأن رجلاً أو رِجَالاً منها قد استهدفوا لذلك . . »[4] .

وهو في هذا يقلد أستاذه الأفغاني الذي دعا إلى القومية والوطنية « الفرعونية » في مصر حيث يقول موجهاً حديثه للعوام « أنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الإستعباد . . . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت . . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار تيبه ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعمة آبائكم وعزة أجدادكم : -

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح »[5]

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٢) لاحظ الفصل بين الدين والسياسة .

(٣) الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جمع محمد عمارة جـ ١ ص ١٠٧ والتاريخ السري : بلنت ص ٤٤٢ .

(٤) الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جمع عمارة جـ ١ ص ١٠٨ .

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ١ ص ٤٦ -٤٧ وزعماء الإصلاح : أحمد أمين ص ٧٨ - ٧٩ .

واتبعا القول بالعمل فجدا واجتهدا في سبيل هدم الخلافة الإسلامية ، واستقلال العرب عن الأتراك والتقريب بين الأديان .

وقد سرت هذه الأفكار والمبادىء في المجتمع الإسلامي بعد ذلك وانتشرت ولا نزال حتى ساعتنا هذه نعاني من آثارها .

وظهرت آثارها أول ما ظهرت في الثورة الكمالية الإلحادية في تركيا حيث عملت أول ما عملت على فصل الدين عن الدولة وقالوا فيما قالوا « أننا نحن العثمانيين لا يمكن أن نترقى إلا إذا نبذنا الدين وراء ظهورنا وعصرنا العلماء عصراً نمحقهم به محقاً ، وسرنا وراء فرنسة خطوة خطوة »[1] .

وأشاد بعض العرب بهذه الحركة وفتن بها كثير منهم قال أحدهم « حصل التقدم في تركيا بعد نبذها تعاليم رجال الدين وفتاويهم وفصلها الأمور الزمنية عن الدينية ، واستغنائها عن قراءة البخاري في السفن البحرية »[2] .

وفي سنة **١٩٢٥** م وضع علي عبد الرزاق كتابه الإسلام وأصول الحكم خاض فيه في مبحثين :

١) هل منصب الخلافة ديني أم سياسي أم هو مزيج من كليهما معاً ؟
٢) هل منصب الخلافة ضروري للمسلمين ؟[3]

وهو في سبيل فصل الدين عن الدولة تضمن : ـ

١ ـ جعل الشريعة الإسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا .
٢ ـ أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك لا في

---

(١) مجلة المنار : مجلد ١٦ جـ ٢ ص عدد صفر ١٣٣١ هـ ص ١٣٢ .
(٢) هذا هو الإسلام : فاروق الدملوجي ص ٢١٣ .
(٣) الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرزاق؛ ص ٥ .

سبيل الدين ولا بلاغ الدعوة إلى العالمين .

٣ ـ وأن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضوع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص وموجباً للحيرة .

٤ ـ وأن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ .

٥ ـ وإنكار اجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا .

٦ ـ وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية .

٧ ـ وإن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضي الله عنهم كانت لا دينية »[١] .

وجاء فيه « الدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات أهون عند الله تعالى من أن يبعث لها رسولاً وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها »[٢] .

وزعم « أن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع ديني خالص لله تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير ، وسيان بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تخفى علينا ، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أن لا فذلك مما لا ينظر الشرع السماوي إليه ولا ينظر إليه الرسول »[٣] .

وقال « التمس بين دفتي المصحف الكريم أثراً ظاهراً خفياً لما يريدون أن يعتقدوا من صفة سياسية للدين الإسلامي ثم التمس ذلك الأثر مبلغ جهدك بين أحاديث النبي ﷺ ، تلك منابع الدين الصافية في متناول

---

(١) حكم هيئة كبار العلماء في كتاب الإسلام واصول الحكم : ص ٥ ـ ٦ .

(٢) الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرزاق ص ١٥٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

يديك ، وعلى كثب منك فالتمس منها دليلاً أو شبه دليل فإنك لن تجد عليها برهاناً ، إلا ظناً وأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً »[1] .

ولن ندع مثل هذا التحدي لهذا القزم المتعملق من غير ردّ ، ولن نأتيه بشبه دليل بل نأتيه بالصاعقة قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بَالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ »[2] وهل الحكم بين الناس إلا عين السياسة وهدفها ولا نريد أن نعدد الأدلة بعد هذا فهي جد طويلة ولكن أتينا بما طلبه « التمس دليلاً أو شبه دليل . . » إلخ ؟! .

وقال بنحو هذا محمد أحمد خلف الله في كتابه « القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة » حيث يقول « إن رياسة الخلفاء الراشدين للدولة العربية (!!) لم تكن دينية بحال من الأحوال وإنما كانت مدنية صرفة »[3] .

وقال « والقرآن الكريم قد أعرض إعراضاً تاماً عن الحديث في أي نظام أساسي للدولة العربية الإسلامية وترك أمر ذلك للمواطنين (!!) يقررون فيه ما يشاؤون (!!) »[4] .

ودعوا إلى حركة القومية العربية وقالوا : « إن هذه الحركة لم تتخذ من الإسلام خاصة ومن الدين عامة أساساً لها ، وإنما مضت على أساس عربي خالص »[5] « وإن الفكرة العربية أكثر انتشاراً وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلامية »[5] .

ودعوا إلى توحيد الأديان وصهرها بعضها ببعض وهو سبيل من سبل القومية قال أبو ريّة « إن الناس سيصلون إن شاء الله بعلومهم وعقولهم إلى

---

(١) المرجع السابق : ص ١٥١ .
(٢) سورة النساء من الآية : ١٠٥ .
(٣) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله ص ٨٢ .
(٤) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمّد أحمد خلف الله ص : ٨٢ .
(٥) مجلة العربي العدد الأول مقال ( القومية العربية كما يجب أن نفهمها ) محمد أحمد خلف الله ص : ٢٢ و ٢٤ .

مرتقى تزول فيه الجنسيات الدينية وتختفي العصبيات المذهبية ويجتمعون على دين واحد يشمل الناس جميعاً وهذا الدين يقوم على ثلاث قواعد :

١ ـ إيمان بالله
٢ ـ عمل صالح في الحياة
٣ ـ إيمان باليوم الآخر

أما ما وراء ذلك مما هو خارج عن علمهم فأمره مفوض إلى ربهم وبذلك يعيشون الحياة تحت ظل السعادة ظليل متحابين متعاونين على عمل ما فيه الخير لكل قبيل »[١] .

وإذا ما استنكر أحدهم الترحم على نصراني قال « إذا كان حكمكم على الكافر صحيحاً فإن النصراني ليس بكافر »[٢] .

ولنقف هنا ولنجمع الشتات
القومية الوطنية
التقريب بين الأديان
فصل الدين عن الدولة

أحسبها وجوهاً متعددة لقضية واحدة ، هدفها واحد : إقصاء الدين الحق وقيام قومية وطنية . . لا دينية « علمانية » . . تنبذ الدين وتقصيه عن ميدان السياسة وحينئذ يسهل انقيادها لمن خطط لذلك ووقف خلفه من وراء الستار هل ترون الأصابع الخفية ؟! إنها الصهيونية العالمية تسعى .

للقضاء على القومية الدينية .

وصهر الأديان تحت عنوان التقريب بينها وهو تذويب لها وتدمير . وفصل الدين عن الدولة .

---

(١) دين الله واحد على السنة جميع الرسل : محمود أبو ريه ص ١٦٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

وظفرت في يومنا هذا على حلم كبير من أحلامها فقد صرح زعيم عربي بـ

فصل الدين عن الدولة بمنع الخطباء في المساجد من التعرض لما يجري في السياسة . . . . الخ .

وسعى ويسعى في بناء
مسجد « إسلامي » و « كنيسة نصرانية » و « معبد يهودي »

في سيناء في سبيل التقريب بين الأديان أليس « خير أوجه الوحدة الوطن » كما يقول الشيخ محمد عبده[1] آخر أخبار هذا المشروع أن هذا الزعيم طلب من ممثلة أفلام الخلاعة والجنس أن تتبرع لبناء هذه المعابد ولو بدولارين .

## و ـ في الإجتماع والأسرة : ـ

والحديث هنا متشعب الأطراف متعدد الجوانب وأهم الأطراف وأخطر الجوانب قضية المرأة أليست المرأة هي الأم وهي الأخت وهي البنت وهي الزوجة وهي المربية وهي المعلمة ؟! وهي في كل قاعدة تقف عليها أو منصب يجد الرجل والطفل والشاب ما يجذبه إليها ويشده ومن هنا يكون تأثيرها .

إن صلحت أصلحت وإن فسدت أفسدت أليست المرأة الصالحة خير متاع الدنيا ؟! إذن فاظفر بذات الدين تربت يداك .

وأحسب أن المرأة جوهرة يجب أن تصان عن أعين اللصوص وغبار الطريق ما الذي ترجوه من إمرأة خلعت جلبابها وهتكت سترها وتزينت وتبرجت وفتنت وافتتنت واختلطت برجال تأججت غرائزهم وانفلت زمامهم ، ما إن يفتح أحدهم مجلة حتى يرى الصورة المثيرة ، ويذهب

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ٢ ص ١٩٤ .

إلى دار السينما فيرى ما هو أشد ويفتح التلفاز والمذياع فيسمع ويرى قصص الحب والغرام وماذا بعد هذا ؟ !

ينظر إلى زميلته في العمل أو على كرسي المدرسة وقد اكتست من المدنية سربالاً وتزينت بزينتها ولبست لباسها وأصابها ما أصاب الرجل نفسه وخلا لهم المكان والزمان بعد هذا ؟!

ما الذي ترجوه من امرأة تسلم أولادها لمربية وتخرج إلى واجهات المتاجر والمعارض وتتخذ وسيلة لإغراء المشترين حيث تحدثهم بأرق حديث وألينه ، أو تتجه إلى آلات المصانع ودخان المعامل وتهين نفسها بين العمال والموظفين هذا يغمزها وذاك يلمزها وذاك ينظر إليها بعين النهم ؟! أو تنساق وراء مغريات الحضارة والحياة الغربية وتتبع شهواتها ورغباتها والمتعة المحرمة ؟ كل هذا ولا شك سبب خطير لوقوعها في الرذيلة ، إن لم تختصر الطريق وتجعل الرذيلة مهنتها . . .

وحينئذ فلا أسرة ؟ وتشتت الأسر ضياع للمجتمع ، وضياع المجتمع ضياع للأمة ؟ إذن فضياع المرأة ميزان لضياع الأمة يرتفع ضياعها بارتفاع ضياع المرأة وينخفض بانخفاضه ويسلم بسلامتها ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء »[1] وفي رواية « أضر على أمتي » .

وقبل هذا قال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾[2] عدد سبحانه

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة ، ورواه مسلم في كتاب الرقاق ورواه الترمذي في كتاب الأدب باب : ٣١ ورواه ابن ماجه في الفتن : باب فتنة النساء حديث ٤٠٦٢ ورواه أحمد جـ ٥ ص ٢٠٠ و ٢١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٤ .

في هذه الآية متاع الحياة الدنيا وجعل في مقدمته النساء قال ابن حجر رحمه الله تعالى « وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك »[1] .

أدرك ذلك المقياس المعز لدين الله لما قيل له : إن نساء قصر الإخشيد قد أغرقن في الترف ورفعن نقاب الحياء والسرف واستهنّ بالفضيلة وتركن رسالتهن قال في زهو وانتصار « اليوم فتحت يا مصر »[2] .

وأدرك هذا الشاعر العربي حين قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وأدرك هذا أيضاً الإستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية وجندت جنودها لهذا الهدف ، ولقد خدمها ولا زال يخدمها في تحقيقه كثير وكثير من الناس منهم من يعلم أنه جند من جنود الإستعمار ومنهم من يعلم أنه جند من جنود الصهيونية نفسها ومنهم أمعة يخدمهم من حيث لا يدري

ظهر أول كتاب في مصر يدعو إلى « تحريرها » من النظام الإسلامي سنة ١٨٩٤ م عنوانه « المرأة في الشرق » لمؤلفه مرقص فهمي المحامي وبعده بسنوات خمس أصدر قاسم أمين كتابه الأول « تحرير المرأة » دعا فيه إلى :

١) القضاء على الحجاب الإسلامي المعروف .
٢) إباحة الإختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها .
٣) تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي .
٤) منع الزواج بأكثر من واحدة[3] .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : بن حجر العسقلاني جـ ٩ ص ١٣٨ .
(٢) الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ١٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٣ - ٧٤ .

ونحن ندرك صلة الشيخ محمد عبده بهذا الكتاب فهي لا تخفى وسبق الحديث عنها وأقل ما قيل في هذه الصلة أن هذا الكتاب « وضعه ـ قاسم أمين ـ بإيعاز من الأميرة نازلي وبتشجيع من المغفور له الشيخ محمد عبده »[1] .

وقد حقق الأستاذ محمد عمارة في « الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين . . وإن في هذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده ، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب صياغته النهائية بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين »[2] .

وقد أحدث صدور هذا الكتاب ضجة في المجتمع المصري دونها الضجة التي أحدثها علي عبد الرازق في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » أو طه حسين في «في الشعر الجاهلي»أو محمد أحمد خلف الله في « الفن القصصي في القرآن الكريم » . ذلك أن هذه الكتب إنما يعنى بها رجال السياسة والأدب وعلوم القرآن وإن شئت فقل الطبقة المثقفة .

أما « تحرير المرأة » فيمس كل الطبقات لارتباطه بحياة كل أسرة وتناوله المباشر لأحد أركانها ولهذا كان له من الأثر والصدى في المجتمع ورود الفعل ما لم يكن لتلك .

قالوا عن الكتاب فيما قالوا« إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب مصدر تغير عظيم في أفكار الأمة ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم في أخلاقها . . »[3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : جمع وتحقيق محمد عمارة جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٤٥ جـ ١ .

لذلك فلا عجب أن يقوم ضد هذا الإتجاه الفكري طائفة من الناس كبيرة إما لغرض ديني محض ، وإما تقرباً للمجتمع المصري الرافض لهذا الإتجاه وهو الجانب الأكبر .

وقف فيمن وقف ضد هذا الإتجاه الحزب الوطني[1] الذي شجب هذا الإتجاه في أول اجتماع عقده بعد صدور الكتاب في ٥ شعبان ١٣١٧ هـ ١٨ سبتمبر ١٨٩٩ م وفتح صدر صحيفته اللواء لكل طاعن على قاسم أمين وأفكاره[2] .

وحينما توفي قاسم أمين سنة ١٩٠٨ م وأقام له شيعته حفلة تأبين أشادوا فيها بدعوته إلى السفور قابل رجال الحزب الوطني هذه الحركة بإقامة إحتفال كبير للدعوة إلى الحجاب[3] .

وفي مقابلة هذا كان « حزب الأمة » من المناصرين لقاسم أمين وأفكاره على صفحات « الجريدة » وكان لطفي السيد باشا في مقدمة المروجين لها بمقالاته العديدة[4] .

وكان لا بد من تدخل الإستعمار الذي استغل فترة الحرب العالمية الأولى فاعتقل رجال الحزب الوطني وأوعز إلى أنصار الدعوة النسائية بإصدار مجلتهم « السفور »[4] وحتى هذا الوقت كانت النساء الداعيات إلى السفور يخرجن في مظاهرات وهن متحجبات ومنهن هدى شعراوي وصفية زغلول حرم سعد زغلول أحد تلاميذ الأستاذ الإمام .

---

(١) هذا حزب وطني جديد ليس هو الذي شارك محمد عبده في صياغة دستوره وسبق الحديث عنه .

(٢) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ٧٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٠ - ٨١ .

وفي عام ١٩٢٢ م تلقت هدى شعراوي[١] دعوة من الإتحاد النساتي الدولي بروما وعند عودتها ورسو الباخرة في الميناء المصري ألقت حجابها في ماء البحر . . ثم كونت الإتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣ م ووضعت حجر الأساس له في ابريل ١٩٢٤ م .

ودعا الإتحاد النسائي إلى تطبيق المبادىء التي نادى بها مرقص فهمي وقاسم أمين وفي مقدمتها تعديل قوانين الطلاق ومنع تعدد الزوجات علاوة على المطالبة للمرأة بالحقوق الإجتماعية والسياسية المزعومة[٢] وبعد عشرين عاماً من إنشاءه أي سنة ١٩٤٤ م استطاع الإتحاد النسائي أن يمهد لعقد المؤتمر النسائي العربي وجاءت قراراته بالدعوة إلى تطبيق ذلك ؟! .

هل تريدون أن أذكر شيئاً من صلة الصهيونية العالمية بذلك ؟ إذن فأعلموا أن حرم الرئيس الأمريكي روزفلت أبرقت إلى المؤتمر بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٤٤ م أشادت فيها بالإتحادات النسائية في البلاد العربية وقالت فيها أنها « واثقة » من أن النساء العربيات سيقمن بدورهن إلى جانب شقيقاتهن في بلدان العالم أملاً في نشر التفاهم والسلم العالمي في المستقبل « ولسنا في حاجة إلى أن نذكر الجهد الكبير الذي بذلته مسز روزفلت في تكوين الوطن القومي لليهود في فلسطين . . »[٣] .

وعقب هذا المؤتمر تكون « الحزب النسائي » سنة ١٩٤٥ م وفي

---

(١) هدى شعراوي ابنة ( محمد باشا سلطان ) الذي رافق جيش الإحتلال في زحفه على القاهرة ودعا الأمة إلى استقباله وعدم مقاومته ، وأهاب بها إلى تقديم كافة المساعدات المطلوبة له ، وسجل له التاريخ صفحة خالدة حينما تقدم مع فريق من الخبراء بهدية من الأسلحة الفاخرة إلى قادة جيش الإحتلال شكراً لهم على إنقاذ البلاد ؟ ! وخدمة لأهداف الإستعمار فجاءت البنت تواصل اعمال والدها .

(٢) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : محمد عطية خميس ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : مجمع محمد عطية خميس ص ٨٥ ـ ٨٦ .

عام ١٩٤٩ م تكون حزب بنت النيل وزعيمته درية شفيق وأصدر العديد من المجلات بالعربية والفرنسية للكبار والصغار .

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو السؤال عن إيرادات هذا الحزب المالية وقدرته على إصدار هذه المجلات ؟ والجواب كما نشرت الصحف بعد ذلك أنه من سفارتي بريطانيا وأمريكا ؟! .

وقد لقي هذا الحزب الترحيب من الإستعمار بكافة دوله ، وزيرة الشؤون الإجتماعية في إنجلترا تقوم بزيارته ورئيسة الإتحاد الدولي تبرق إلى رئيسة الحزب تدعوها للزيارة في أثينا . وجمعية سان جيمس النسائية بانجلترا تهنىء الهيئات النسائية المصرية على كفاحها وتعلن تأييدها لها ، ورئيسة لجنة الحقوق الإقتصادية بالإتحاد الدولي تقوم بزيارة إلى مصر لغرض الإطمئنان على أحوال الجمعيات النسائية في مصر[١] .

إهتمام عجيب ما عهدناه منهم فيما فيه صلاحنا وصلاح ديننا ولكنهم يدركون أنهم بذلك إنما يسعون لخدمة مصالحهم الصهيونية ؟! نعم الصهيونية ذاتها !! أتريدون شاهداً على ذلك ! لقد دعا المؤتمر النسائي الدولي إلى اجتماع في ستوكهلم عاصمة السويد ومن قراراته قرار يقضي بمطالبة وزير الداخلية في السويد بإنزال أشد العقوبات على مسيو أنيراير ؟ أتدرون لماذا ؟!؟ لمواصلته أعمال الدعاية ضد الصهيونية في السويد !! وقد كتب مسيو أنيراير على إثر ذلك إلى الجامعة العربية والحكومة المصرية يستنكر موقف مندوبات الهيئات النسائية المصرية الممثلة في المؤتمر لموافقتهن على هذا القرار[٢] !!

وبهذا وغيره كثير تبدو لنا صلة الحركات النسائية بالإستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦ - ٩٣ .

(٢) الحركات النسائية وصلتها بالإستعمار : جمع محمد عطية خميس ص ٩٤ - ٩٥ .

ومعذرة إذ أطلت الحديث عن الإتحادات النسائية وصلتها بالإستعمار فما قصدت إلا بيان أثر تلكم الدعوة التي قام بها رجال المدرسة العقلية الحديثة بزعامة أستاذهم محمد عبده لما أسموه « تحرير المرأة » والصلة بين هذه الحركات النسائية ودعوة الأستاذ محمد عبده وتلميذه قاسم أمين صلة قوية واضحة .

بقي . . وقفة . . وهمسة

وقفة مع محمود عوض الذي أبدى دهشته وأسفه لتحول منزل قاسم أمين « إلى كباريه . كباريه اسمه . . اسمه الإريزونا ! »[1] .

وهمسة نهمسها في أذن محمود عوض هذا : ـ ألا تستقي العبرة . . ألا تستوحي من هذا أن هذه « الدعوة » توصل إلى هذه « النتيجة » .

**ز ـ في السيرة النبوية : ـ**

وعلى النهج الذي سلكناه في بيان أثرهم في بعض النواحي الفكرية فلن يشمل الحديث هنا أثرهم في جميع جوانب تأريخ السيرة النبوية وإنما في جانب هو أســها وقاعدتها وأعني به المعجزات المحمدية .

وممن تأثر بهم في هذه المسألة وسار على خطاهم محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » فهو حرصاً منه على تضييق نطاق الغيبيات التي لا تتفق مع علمية الغرب المادية ، راح ينكر كل معجزة لنبينا محمد ﷺ ويستثني من هذا ـ كما استثنوا ـ معجزة القرآن الكريم .

حتى عنوان الكتاب « حياة محمد » يبدو التأثر فيه واضحاً فليس فيه ما يشير إلى رسالته أو نبوته بل « محمد » مجرد من كل شيء كأي « محمد » سواه ، أليس هذا هو ما يبقى له بعد تجريده من المعجزات

---

(١) أفكار ضد الرصاص : محمود عوض ص : ٥٧ .

وأليس هذا هو مراد الغربيين من ذلك ، وإن ثبت له شيء بعد هذا فإنما هي العبقرية لا النبوة ، ولا أحسب هيكل أراد هذا بهذا العنوان وقصده وإنما هو التلقي والتأثر عن الغربيين من غير أن تترك له عين الرضا والإعجاب والدهشة التمحيص والتأمل وهو أمر أصاب غيره كثير من قبله ومن بعده[1] حتى ألفت الأسماع هذا وهو نشاز . . ويزداد خوفي عندما أقرأ له عند مناقشة إحدى القضايا عبارة « وندع الدين جانباً »[2] يزداد خوفي أن يكون أراد ترك الدين جانباً في عنوان كتابه « حياة محمد » ؟!

أنكر أو أوّل المعجزات لنبينا ﷺ إلا معجزة القرآن الكريم ، ونحن لا ننكر أن معجزته ﷺ الكبرى هي القرآن الكريم ولكننا ننكر حصر معجزاته ﷺ في ذلك وإنكار ما سوى المعجزة القرآنية كما بينا ذلك سابقاً .

فنحن المسلمون نؤمن بما ثبت من معجزاته ﷺ غير القرآن الكريم ، نؤمن بانشقاق القمر وبالإسراء والمعراج وقصة فرس سراقة وبصقه ﷺ في عين علي فبرئت وكلها ورد في البخاري ومسلم . وغير ذلك من معجزاته الثابتة نؤمن بها ونؤمن مع هذا بمعجزة القرآن الكريم وأنه المعجزة الكبرى .

لكن الأستاذ هيكل يرفض هذا لأسباب :

الأول : أن أكثر هذه المعجزات لا يصدقها العقل حيث يقول « وندع الدين جانباً ( !! ) ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ما لا يصدقه العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة »[2] .

---

(١) من ذلك : الوحي المحمدي لرشيد رضا ، وعبقرية محمد لعباس العقاد ، ومحمد والقوى المضادة لمحمد خلف الله ومحمد نظرة عصرية جديدة لمجموعة من الكتاب .

(٢) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٣٤ .

الثاني : أن العلم لا يقرها ومن الواجب مراعاة جانب الدقة العلمية في تمحيصها قال « أما ومضرة الروايات التي لا يقرها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعي جانب الدقة العلمية في تمحيصها خدمة للحق وخدمة للإسلام ولتاريخ النبي العربي ، وتمهيداً لما يجلوه البحث في هذا التاريخ العظيم من حقائق تنير أمام الإنسانية سبيلها إلى حضارتها الصحيحة »[1] .

الثالث : أن القرآن لم ينص عليها قال « لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلا القرآن الكريم »[2] .

ثم قال « أما وذلك ما يجري به كتاب الله وما يقتضيه حديث رسول الله فأيّ داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق مادية للنبي العربي ؟ إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء في القرآن عن معجزات من سبق محمداً من الرسل فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة فصدقوا ما روي منها وإن لم يرد في القرآن »[3] ؟! .

وقال في موضع آخر « فما دام الوحي لم ينزل بها فلا جناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصل به من أمرها محل تمحيص فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به ، وما لم يثبت بها فله فيه رأيه ، ولا تثريب عليه ، فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى معجزة ، ولا يحتاج إلى أكثر من النظر في هذا الكون الذي خلقه الله والشهادة برسالة

---

(١) حياة محمد :محمد حسين هيكل ص ٧٠ .
(٢) المرجع السابق : ص ٧١ .
(٣) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٧١ .

محمد . . لا تحتاج إلى معجزة غير القرآن »[1] .

وقال « فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء كان يزيد وينقص دون مسوغ إلا اختلاف الأزمان التي وضعت هذه الكتب فيها فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها »[2] .

ولنا وقفة مع هيكل هنا فقد كشف لنا ناحية أخرى من نواحي تأثره برجال المدرسة العقلية الحديثة ألا وهو التقليل من شأن السنة والإحتجاج بها .

ما الذي يقصده بقوله « فصدقوا ما روي منها وإن لم يرد في القرآن » هل يقصد أنه لا يصح شيء مما ورد في السنة واستقلت ببيانه ولم يرد في القرآن !؟ إن كان يقصد هذا فالأمر أخطر وأكثر ضلالاً وانحرافاً ؟! وهل يقول هذا من فقه الإسلام ؟! إذن ففي أي سورة من سور القرآن ذكر عدد ركعات الصلوات الخمس وأوقاتها وفي أي سورة بيان أنصبة الزكاة المفروضة وفي أي سورة بيان وقت الصوم وفي أي سورة بيان أركان الحج وواجباته ؟ إن لم يكن هذا كله مما لا يصدق لأنه لم يرد في القرآن فأي شيء من الإسلام يبقى ؟!

إذن ففقه الإسلام وحقيقته تحتم الأخذ بالسنة مع القرآن الكريم ، وبهما معاً يكون كمال الإسلام ومن نبذ أحدهما فقد نبذ الإسلام كله لأن الإسلام كل لا يتجزأ ( والإسلام الكامل ) الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله وأمر بنشره جاء بالمعجزات ورواها عنه أصحابه إلى أن وصلت إلينا كما وقعت ، وإن أصاب رواياتها ما أصاب غيرها من الروايات من الزيادة أو النقص أو الوضع فإن هذا لا يبرر رفضها جميعاً وإنكارها . فإن

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٤ .

أهل الحديث قد محصوا الروايات ونقّوها من الزيادات الموضوعة وبينوا الدخيل منها والأصيل .

ولو أنّه دعا إلى التمحيص والتدقيق القائم على القواعد والأسس الثابتة التي سار على نهجها سلفنا علماء الحديث لحمدنا له ذلك ولامتدحناه ، أما أن يرفض المعجزات النبوية التي رويت في الصحاح وأقرها علماء الحديث المسلمون يرفض هذا كله لمجرد أن شابه بعض الوضع فهذا منهج مردود .

أما الزعم بأنه مخالفة للعقل أو العلم فهذا لا يثبت ولا يصح وقد سبق بحثه في المعجزات .

وليعلم أولئك الذين يسعون لتجريد نبينا محمد ﷺ من المعجزات تقرباً منهم « للعلمية الغربية » إنهم بهذا يجنون جناية لا تغتفر وأنهم بهذا يجردونه من صفة النبوة إلى صفة « العبقرية » التي يقربها بعض « أحرار الأفرنج » ويطمعون منا أن نسلم لهم بهذا وهو ما يؤدي إليه تجريده ﷺ من المعجزات .

وحتى ندرك عمق هذا الأثر لنقرأ النتيجة التي توصل إليها هيكل في كتابه حياة محمد بعد أن جرد حياته ﷺ من المعجزات ( المادية ) قال « فحياة محمد ـ كما رأيت ـ حياة إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القدر أن يحاول بلوغ الكمال الإنساني من طريق الإيمان والعمل الصالح »[1] .

وتأمل معي وصفه لحياته ﷺ بأنها بلغت « غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ » وأنها « أسوة حسنة » لمن « يحاول بلوغ الكمال الإنساني » .

إذن فحياته ﷺ ليست حياة نبوة ، لأن حياة النبوة ليس في قدرة الإنسان بلوغها حتى يحاول ذلك وليست غاية ما يستطيع الإنسان أن يبلغ

---

(١) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠ .

لأن غاية ذلك دونها بكثير ، وإنما هذا شأن السمو الإنساني المجرد من النبوة وإن شئت فسمه العبقرية .

والإعتراف بالعبقرية لنبينا ﷺ لا يكفي لصحة الإيمان برسالته إلا عند المنهزمين أمام العلمية الغربية الذين اعتبروا أن الإعتراف « بأن محمداً ﷺ كان عبقرياً من طراز خاص فاق به جميع العباقرة » أنه « كسب عظيم للقائلين بنبوته »[1] .

وتأثرهم بالعلمية الغربية والمستشرقين تجاوز حدّه إلى قبول أقوالهم وأخذها بعين الإعتبار وتقديمها في الحكم على الأحاديث ومن حيث السند أيضاً على أقوال أهل الحديث أنفسهم ، فحديث شق الصدر الذي رواه البخاري ومسلم[2] يقول فيه هيكل « لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند »[3] ويقول « وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحديث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق »[3] .

وقد أنكر هيكل غير هذا من الخوارق والمعجزات المحمدية ففي قصة فرس سراقة مثلاً زعم أن ما أصاب فرسه من الكبو إنما هو « لشدة ما جهده » وعند قومة الجواد من كبوته الثانية « كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه وتطير سراقة ، وألقى في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته وأنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هم مرة رابعة لإنفاذ محاولته »[4] .

---

(١) مجلة الأزهر جـ ١ المجلد العاشر محرم ١٣٥٨ هـ مقال السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة : محمد فريد وجدي ص ١٥ .

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ .

(٣) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٧ .

والذي ورد في صحيح البخاري قول سراقة نفسه في وصف ما جرى له ولفرسه عند مطاردته لرسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه في طريق هجرتهما من مكة إلى المدينة قال عن ذلك « ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ( أي غبار ) ساطع في السماء مثل الدخان »[1] .

وحتى ندرك عمق الصلة بين هيكل واتباع المدرسة العقلية الحديثة في التفسير وتأثره بهم نذكر أن الشيخ محمد مصطفى المراغي هو الذي كتب المقدمة لهذا المؤلّف مشيداً بما جاء فيه ومعجباً به ومؤيداً له .

ودافع عن المؤلف والكتاب السيد رشيد رضا في مجلته المنار وجاء في دفاعه « أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي . . بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات . . وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل »[2] .

والمؤلف نفسه كثيراً ما يستشهد فيما يذهب إليه بأقوال محمد عبده نفسه ويشيد به[3] وأكبر ظنه أن أولئك الذين كتبوا السيرة النبوية لو عاشوا إلى زماننا هذا ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله لالتزموا ما جاء به القرآن ولقالوا بما قال به الغزالي[4]

---

(١) صحيح البخاري ؛ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة جـ ٥ ص ٧٧ .

(٢) مجلة المنار في ٣ مايو ١٩٣٥ مجلد ٣٤ الجزء العاشر ص ٧٩٣ .

(٣) انظر مثلاً الصفحات ٣٤ ، ٧٠ ، ١٨١ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ .

(٤) يقصد أبا حامد الغزالي ولم يذكر له نصاً يدل على ما زعم ، بل لم يرد ذكر الغزالي في كتابه إلا مرة واحدة في هذا الموضع ومن غير ذكر نص من نصوصه .

ومحمد عبده والمراغي وسائر المدققين من الأئمة[1].

ويقول عن الشيخ عبده ودعوته « وكانت دعوته موضع إعجابي وقد دعاني ذلك لقراءة كتابه ( الإسلام والنصرانية ) وكتاب أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني في « الرد على الدهريين » وأذكر أنه قد كان لكثير من مقالاته في جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها مع أستاذه جمال الدين أثناء نفيه نفسه في باريس أثر أبلغ الأثر في نفسي »[2].

والصلة بعد هذا قوية لا تنفصم بين هيكل ورجال المدرسة .

وممن تأثر بهم أيضاً في هذا الناحية محمد أحمد خلف الله الذي زعم أن القرآن حارب فكرة المعجزات ، وبين أنها لم تكن إلا للتخويف والإلزام وأن العقل البشري يجب أن يترك من غير تخويف ليتحمل المسؤولية على أساس من الحرية والمقدرة الحقة على التمييز والمفاضلة والإختيار »[3] و « لم يحرص القرآن على المعجزات في إثبات نبوة محمد عليه السلام »[4] .

وزعم أن القرآن حرر الإنسان من « الآيات الملجئة المتمثلة في المعجزات وخوارق العادات ورده إلى نفسه يفكر فيها وإلى الآفاق يتدبر أمورها »[5] .

وهو أيضاً يستند فيما يقول إلى محمد عبده « ويقول الأستاذ الإمام قولاً يؤكد دور القرآن في عملية تحرير العقل البشري من فكرة الخوارق والمعجزات « دخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد

---

(١) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٧٠ .
(٢) مذكرات في السياسة المصرية : محمد حسين هيكل جـ ١ ص ٢٨ ـ ٢٩ .
(٣) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله . ص ٧٦ .
(٤) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة : محمد أحمد خلف الله . ص ٧٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٧٩ .

مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان . . إلخ »[1] .

وممن تأثر بهم أيضاً في مسألة المعجزات صاحب تفسير « الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن » وقد تقدم بيان ذلك في أثرهم في التفسير .

وغير هؤلاء كثير مما ليس في وسعي حصره هنا ، ولنقف هنا في بيان أثرهم في بعض نواحي الفكر الاسلامي ولعل فيما ذكرنا ما يكفي لإثبات أثرهم فيها .

والحق أن أثر المدرسة العقلية الحديثة في حدّ ذاته موضوع واسع يحتاج إلى دراسة مستقلة متعددة الجوانب مستوفاة الأطراف ، وما ذكرناه ما هو إلا رؤوس أقلام وعناوين عريضة لمباحث يجب أن تجلى ويكشف النقاب عنها وليس في وسعنا ونحن ندرس الأصل أن نتوسع في فرع من فروعه أكثر مما فعلنا .

ولكن . . مهلاً ! أرى لزاماً أن أذكر بعد هذا موقف علماء المسلمين من رجال المدرسة العقلية الحديثة بنوعيهم المعاصرين لهم ومن بعدهم وبيان رأيهم فيهم ومن ثم أذكر موقف الإستعمار والإحتلال والمستشرقين منهم ففي بيان هذه المواقف جلاء لحقيقتهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧ .

## ثانياً : موقفُ عُلمَاءِ المُسلِمينَ مِنهُم .

وأسمح لنفسي هنا أن أستبق الأحداث وأجيب هنا على سؤال هام قد يخطر على ذهن من يقرأ ما سأكتب هنا .

سيقول قائل : ـ تحيّزك هنا بيّن وإجحافك بحقهم واضح وظلمك لهم ظاهر ! كان الواجب إذا أردت تقييم أولئك الرجال أن تذكر أقوال أنصارهم وخصومهم ، أن تذكر أقوال المدح والثناء عليهم والإعجاب بهم والإطراء لهم ، وتذكر في مقابل ذلك عبارات التجريح والذم لهم والتحذير منهم ، أما أن تعمد إلى أقوال الخصوم وتدع أقوال الأنصار فليس هذا من الإنصاف في شيء ؟

أقول لهذا رويدك . . لقد قلت بعض الحق لو كان قصدي من سياق الأقوال هو تقييم رجال المدرسة العقلية بها ، والحق أن هذا ليس كل قصدي .

ذلكم أن تقييمهم لا يكون بعرض أقوال الناس فيهم وإنما يكون بعرض أقوالهم أنفسهم على الكتاب والسنة وبمقدار موافقتهم لهما تكون سلامتهم والعكس بالعكس وهو ما فعلناه في كثير من القضايا التي بحثناها .

أما مرادنا هنا من عرض أقوال ( من سميتهم خصوماً )[1] فهو أن نبين للقراء أنه كان بين علماء المسلمين من لم ينخدع بهم ويعميه الإعجاب بهم عن كشف مثالبهم وتجاوزهم وأخطائهم ، وأنه كان بين العلماء من أدرك ذلك في حينه وأخذ على عاتقه كشفه وبيانه للناس ، ولكنهم كانوا قلة في العدد والعدة ولم تكن هناك دولة تساندهم ولم يكن هناك إستعمار يسعى لنشر أفكارهم واحتجاجاتهم بل الأمر على الضد من ذلك كانت الدولة مع الآخرين تنشر أفكارهم وتؤيد قضاياهم وتقف خلفهم وصورهم الإستعمار والمستعمرون للناس عامة بصورة المصلحين الساعين إلى ما فيه خيرهم وخير بلادهم ولا تزال هذه الصورة لهم إلى ساعتنا هذه هي الطاغية على الحقيقة حتى عند العلماء منهم ، وحتى أن الأستاذ أنور الجندي يقول عن أحد الناقدين لهم « وهكذا يمضي الدكتور محمد حسين في إثارة الشبهات حول حقيقة جمال الدين ومواقفه مخالفاً كل ما ذهب الناس إليه من الثقة به واعتباره رائد النهضة وموقظ الشرق »[2] .

إذن فلا يحتاج هذا إلى بيان أقوال المؤيدين لهم والمناصرين لأفكارهم ومبادئهم ، وإنما يحتاج الأمر إلى بيان : من رفض أقوالهم ، وكشف للناس حقيقتهم وسيرتهم وهذا ما سنفعل إن شاء الله فنبدأ :

**أ ـ المعاصرين لهم : ـ**

ونبدأ ذلك بأقوال الشيخ محمد الجنبيهي صاحب كتاب « بلايا بوزا » الذي وضعه رداً على طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي »

---

(١) الحقيقة أنهم ليسوا كلهم خصوماً بل فيهم من هو معجب بهم في بعض الجوانب لكن إعجابه هذا لم يمنعه من قول الحقيقة في جوانب أخرى وحتى الخصوم الذين ننقل عنهم هنا لم يخاصموهم فيما نعلم لأمر دنيوي أو حقد أو حسد وإنما لأمر ديني وغيرة منهم على الاسلام ، ولا يعدّ هذا تجريحاً أو طعناً في نقدهم .

(٢) مفكرون وأدباء : انور الجندي ص ٢٦٢ .

ويرمز الشيخ الجنبيهي بـ « بوزا » لطه حسين وهو اصطلاح فرنساوي وهي قطعة من الخشب وزنها خفيف . . على هيئة قبل الرجال ولقد ركبت تلك القطعة على مقعر من رصاص ثقيل . . فتراها كلما ألقيت فوق الأرض كانت قائمة وقد ضربها عقلاء الأقدمين مثلاً لكل ضال حائر مغرور ذي لسانة وسفه فقد مزايا الأدباء وشذ عن مناهج الفضلاء متلبساً بعناد وإصرار شيطاني من حيث لا يشعر بما يقول ولا بما يعمل فلا تتوجه به أمياله إلا إلى مخالفة الفضلاء ومعارضة الأدباء بما لا يعلم عاقبته ولا يستطيع أن يقيم على صحته دليلاً »[1] .

وحينما يتحدث الشيخ عن الأفغاني ومحمد عبده فإنه لا يتحدث حديث التخرص والظنون وإنما حديث من خالطهم وعاشرهم ، فهو حديث خبير بهم حيث يقول « إني نشأت بعد بلوغ الرشد وطلب العلم في الأزهر الشريف مصاحباً لتلميذ جمال الدين الأفغاني ومحاذياً له قدماً بقدم بعدما أتى جمال الدين الديار المصرية وكثيراً ما جالست ذلك الرجل وتذاكرت معه مذكرات ذكرتها في بعض الكتب وما كان يدعوني إلى مجالسته إلا صاحبي الذي كان يظن أن يجذبني إلى الميل إلى ما مال إليه من فتنة ذلك الفاتن وكنت أطمع أن أكون سبباً في خلاصه من تلك الفتنة ( ولكن الله غالب على أمره )[2] » .

إذن فحديثه حديث المخالط المعاشر فلنذكر حديثاً له مع جمال الدين الأفغاني ، كان محور الحديث بينهما ما يروى من الحديث القدسي « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني »[3] قال الجنبيهي « ولقد كان لي في هذا الحديث القدسي مع جمال الدين

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٣٨ .

(٣) قال السخاوي في المقاصد الحسنة « قال بن تيمية أنه ليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي وشيخنا» المقاصد الحسنة ص ٣٢٧ .

الأفغاني واقعة كانت سبباً لعدم اتصالي به مع شديد رغبته ورغبة تلميذه الذي أشرنا إليه من قبل ، وتلك الواقعة هي أني سألته عن هذا الحديث لعلمي أنه ينكر الأحاديث القدسية لأنه طبيعي لا يعترف بوجود إلـه، وكنا في مجمع من الناس فقال ليس هذا وقت الكلام على هذا الحديث فأمهلني لوقت آخر « إلى أن قال أنه وجده في مجالس اللاهين في قهوة من القهاوي فقال له « هذا وقت الكلام على ذلك الحديث الشريف » فما كان جوابه إلا أن قال : ـ ذهب فيلسوف إلى المنتزه في يوم العيد فوجد الناس على حال مضحك : منهم من هو مخمور ومنهم من هو لاعب ومنهم من هو مرافق لامرأة من المومسات ومنهم من هو راقص ومنهم من هو متلبس بما لا يرتضيه أبناء البشر فنظر ذلك الفيلسوف إلى السماء قائلاً ( الآن وقعت الحسرة في قلبك أهؤلاء كلهم عرفوك ) فعند ذلك تغير حالي وعلمت أن الرجل ضال فقلت له أن هذا الفيلسوف لأحمق ومجنون قال : ولم ذلك قلت : لأن من جهل ربه في الدنيا يعرفه فيما بعد الموت ومن جهله في الرخاء يعرفه عند الشدة فما ذلك الفيلسوف إلا ضائع العقل والدين ثم تركت الرجل محزوناً لأن فتنته لم تؤثر في قلبي أثراً كان يريده وكان ذلك الموقف آخر عهدي به »[1] .

ويتحدث الجنبيهي عن المقادير التي جمعت بين دول الإستعمار وأنهم « ألهموا أن المتمسكين بآداب الدين القويم لن يغلبوا ما داموا متمسكين به سواء كثروا أو قلوا لأن المتمسك بدينه مرتكن على قوي متين لا يغلب ولا يقاوم فلذلك أجمعوا رأيهم على أن يعتمدوا على العلماء السياسيين منهم في حل روابط ذلك التماسك فقرر أولئك السياسيون فيما بينهم أن روابط الدين القوية لا تنحل إلا بثلاثة أمور : استبدال العلم النافع الذي كان يسأل رسول الله ربه أن يزيده منه بالعلم الذي كان يستعيذ بربه منه ، والأمر الثاني تولية المناصب لغير أهلها . والأمر الثالث

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ١١٨ ـ ١١٩

إيجاد أسباب قوية توقد نيران العداوة والبغضاء والتشاجر بين المسلمين حتى لا يتمسكوا بدينهم ولا يتفقوا على عمـل مرضٍ » إلى أن قال « وبمقتضى هذه الفكرة السياسية بعث جمال الدين الأفغاني إلى الديار المصرية لتنفيذ مفهوم تلك الفكرة »[1] .

ويتحدث عن علماء الأزهر آنذاك بأنهم « أيقنوا أنه ـ أي الأفغاني ـ من رجال الفتنة التي يتيحها الله لأشرار العلماء »[2] .

ويتحدث عن محمد عبده ويسميه ( ابن عبده الغرابلي ) لأن أهله كما يقول الدكتور محمد محمد حسين من الفقراء الذين يمتهنون صناعات صغيرة منها صناعة الغرابيل[3] قـال الجنبيهي عن محمد عبـده « أن الأسباب التي جعلت ابن عبده الغرابلي محبوباً لفحول السياسيين ولولاة الأمور من الدول المتحالفة على محو الإسلام اسماً ورسماً وصيـرته محموداً عند محرري الجرائد الأورباوية تتمدح باسمه وتعتني بعمل تذكار له هي بعينها الأسباب التي يتناول بها أستاذ الجامعة المصرية ـ يقصد طه حسين ـ مرتباً كبيراً بسبب شهادة الدكتوراه التي تناولها من أوربا لسبب عـداوتـه للدين ورجـالـه حتى يكـون إذا أعلوا شـأنـه فتنـة لأبنـاء المسلمين »[4] .

ويستدل الجنبيهي على سوء اتجاه محمد عبده الفكري بعلاقته باللورد كرومر فيقول «فهلا فكرت . . في الأسباب التي صعدت بمحمد ابن عبده الغرابلي . . وقد اتخذه جناب اللورد كرومر أستاذاً ومرشداً في الدين وفي السياسة ثم نعاه بعد موته . . فهل كان ابن عبده الغرابلي في عصره من أكابر المرشدين الدينيين وكان ذلك اللورد متعطشاً لأن يسلك

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .
(٣) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٨٧ .
(٤) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ٣٥ ـ ٣٦ .

سبيل المؤمنين . . فهلا تفكر في الأسباب التي جعلته محبوباً لرؤساء الدول المتحالفة على محو الإسلام إسماً ورسماً وما ذلك إلا لأنه أجهد نفسه في حلّ روابط المدنية الإسلامية السماوية . . »[1] .

وتحدث عن محمد عبده بعد عودته من المنفى في البلاد الشامية « فلما انقضت مدة النفي ورجع إلى الديار المصرية كانت ثقة اللورد كرومر به أكبر ثقة فسكن في منشية الصدر بعيداً عن عيون الرقباء وكانت الواسطة بينه وبين اللورد رجلاً انكليزياً يسمى ( بلنت ) كان يتزيا هو وزوجته بزي عرب البادية . . فلما قويت رابطة التواصل بين ذلك الإنكليزي وبين ابن عبده الغرابلي أعطاه قطعة أرض . . ليكون له جاراً وفي ذلك الحين اتخذه اللورد أستاذاً ومرشداً يسترشد برأيه في كل عمل يطلبه في تنفيذ الغرض الذي أجمع عليه السياسيون فكان الإصلاح الأزهري الذي ذهب بالدين وعلمه النافع أدراج الرياح من إشارات ذلك المفتون ، وكذلك كان إصلاح المحاكم الشرعية وما أنشئت الجامعة المصرية إلا بإرشاده وكان من تعليماته لذلك اللورد أن لا يتولى المناصب العالية متمسك بدينه وكان بين ذلك التلميذ وبين المبشرين رابطة وداد قوية فكانوا يزورونه في غالب الأحيان للإسترشاد به في مهمات التضليل التي أجمعوا عليها . . وكان من مساعدة اللورد كرومر لشيخه ومرشده أن ولاه مناصب القضاء الأهلي حتى وصل به إلى وظيفة مستشار . . . ثم عينه مفتياً بالديار المصرية ليكون له الحق في التداخل بشؤون الأزهر الذي أجمع السياسيون على خرابه فكان كل من أراد أن يلتحق بالمناصب العالية يتظاهر بازدراء الدين ورجاله ويكون كزب الأرض في ثباته على تمثيل هيئة العناد والإصرار بعدم الإنقياد لأي واعظ كان من النصحاء . . . وما زالت تماثيل زب الأرض تتفاقم رزاياها وتنتشر مصائبها من سفهاء الزيغ الذي افتتنوا بذلك الطالب المارق من الدين ظانين أن انتشار صيته

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي ص ١٠ .

في الممالك كان لمهارته في العلم وتمسكه بالحق وليس الأمر كذلك وإنما هي فتنة اتخذها اللورد كرومر طريقاً مسلوكاً لتنفيذ أغراض السياسيين في البطش بالدين الإسلامي والخلافة الإسلامية وضياع العلم الديني وكان أمر الله قدراً مقدوراً »[1] .

ونذكر بعد هذا رأي الشيخ يوسف النبهاني وهو مع رأي الجنبيهي كما يقول الدكتور محمد محمد حسين «يصوران الجانب الآخر لصدى دعوة الأفغاني ومحمد عبده عند المعاصرين وهو الجانب الذي اختفى الآن أو كاد يختفي تحت تأثير الضغوط والحماية التي تساند هذه المدرسة وتحارب خصومها »[2] .

والشيخ النبهاني ـ أيضاً ـ إنما يتحدث ويقول بعد معاشرة ومخالطة للأفغاني إذن فقوله قول من أدرك الأمور على حقيقتها لا قول متخرص ظان .

يصفهم بإدعاء الإجتهاد المطلق وهم « الجاهلون » قال نظماً :

وكم من قرون قد توالت ولم يجل بدعوى اجتهاد مطلق عالم فكراً
فكيف أدعاه الجاهلون بعصرنا فما أقبح الدعوى وما أفظع الأمرا[3]

ويرى أن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[4] يرى أنهم هم المرادون بها ويستدل بما نقله السيوطي في الدر المنثور عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه سئل عن هؤلاء القوم فقال لم يأتوا بعد وذكر ذلك البيضاوي ثم قال النبهاني « قلت لا شك أن المنافقين

---

(١) بلايا بوزا : محمد الجنبيهي : ص ٥٠ ـ ٥٣ باختصار .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٩٤ .

(٣) الرائية الصغرى : يوسف النبهاني ضمن العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية له ص ٣٥٤ .

(٤) سورة البقرة الآيتين : ١١ و ١٢ .

المذكورين في هذه الآيات السابقة واللاحقة ، والخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه وغيره من أئمة الإسلام متصفون بهذه الأوصاف الذميمة إلا أنهم لم يدعوا أنهم مصلحون لدين الإسلام ويلقبوا أنفسهم بهذا اللقب مثل هذه الفرقة الضالة فرقة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري في مطابقة الآية لهذه الفرقة أكثر من مطابقتها للمنافقين والخوارج وإن شملتهم جميعاً أحكامها »[1] .

وقال نظماً :

فما بالهم لا يصلحون نفوسهم ... أما هي بالإصلاح من غيرها أحرى[2]

وقال :

وكل امرىء لا يستحي في جداله ... من الكذب والتلفيق مهما أتى نكراً
فمن قال صلوا قال قائلهم له ... يجوز لنا في البيت نجمعها قصراً[3]

وقال

وأعداؤهم من بيننا كل عالم ... ولا سيما إن كان في فقهه بحراً

وقال :

فإياك أن تغتر منهم بفاجر ... وإن أنت قد شاهدت من فعله الخيرا
فذلك شيء جاء ضد طباعهم ... وقد فعلوا أضعاف أضعافه شرا
وكم أيد الإسلام ربي بفاجر ... فنهدي له لا الفاجر الحمد والشكرا
أشد من الكفار فينا نكاية ... وأعظم منهم في ديانتنا ضرا
من الكفر ذو الإسلام يأخذ حذره ... ومن هؤلاء القوم لا يأخذ الحذرا[4]

وقال عن جرائدهم ومجلاتهم : -

بها خلطوا بالحق باطل غيهم ... بها مزجوا الإسلام بالملل الأخرى[4]

---

(١) الرائية الصغرى : ص ٣٥٦ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٥٦ .
(٣) المرجع السابق : ص ٣٦٢ .
(٤) المرجع السابق : الصفحات ٣٦٢ - ٣٦٣ .

وقال عن الأفغاني : ـ

تسمى جمال الدين مع قبح فعله كما وضعوا لفظ المفازة للصحرا[1]

وقال عن محمد عبده :

فمن جهة يدعى الإمام ويقتدي بأعمال أهل الكفر من جهة أخرى
يذم خيار المسلمين وعندما يرى حاجة للكفر يستحسن الكفرا
لكيما يقال الشيخ حرّ ضميره فيبلغ عند القوم مرتبة كبرى
وما زال مشهوداً على الدين شره وإن زعم العميان أن به خيرا

ويصف عبده ـ بعد عودته إلى مصر من منفاه :

وعاد إلى مصر فأحدث مذهباً ولوث من أقذاره ذلك القطرا
وأيّد أعداء البلاد بسعيه وأوهم أهل الجهل أن بهم خيرا
يحسن بين الناس قبح فعالهم ومهما أساءوا راح يلتمس العذرا
بمقدار ما خان البلاد وما أتى لأعدائها نصحاً علا عندهم قدرا

وقال :

ونال بجاه القوم في الناس رتبة بها حاز فيمن شاءه النفع والضرا

وقال :

فمن رهبة أو رغبة كم سعى له طغام من الجهال أكسبهم خسرا

وقال عن منهجهم في التفسير : ـ

وقد ضل في القرآن مع عظم نوره كما خبطت عشواء في الليلة القمرا
فتفسيره من رأيه ليس خالياً فإما يرى فسقاً وإما يرى كفرا
أحذّر كل الناس من كتب دينه وبالرد والأعراض تفسيره أحرى

---

(١) الرائية الصغرى : ص ٣٥٤ .

وقال عنه :

يعاشر نسوان النصارى ولا يرى ... بذلك من بأس وإن كشف السترا
ويأكل معهم كل ما يأكلونه ... ويشربها حمراء إن شاء أو صفرا
ويفتي بحل المسكرات جميعها ... إذا هي بالأسماء خالفت الخمرا
ويأكل مخنوقاً ويفتي بحله ... لئلا يقولوا أنه ارتكب الوزرا
وتحليله لبس البرانيط والربا ... به بعض أهل العلم قد ألحق الكفرا
وكم زار باريز ولندره ولم ... يزر مكة يوماً ولا طيبة الغرا
وإن كان يوماً للرياء مصلياً ... يرى فاعلاً يوما وتاركها شهرا

وقال :

وقد كنت في لبنان يوماً صحبته ... لقرب غروب الشمس من ضحوةكبرى
وصليت فرض الظهر والعصر بعده ... لديه وما صلى هو الظهرا والعصرا
وكان صحيح الجسم لا عذر عنده ... بلى إن ضعف الدين كان له عذرا

وقال :

وقبل غروب الشمس صاحبت شيخه ... لقرب العشا أيام جاورت في مصرا
ولم أره أدى فريضة مغرب ... فقاطعت شيخ السوء من أجلها الدهرا

وقال :

ولولا حديث المصطفى لأسامة ... يقول به هلا شققت له الصدرا
لما صحت الدعوى بإسلام بعضهم ... لدي وما استبعدت عن بعضهم كفرا
وكنت كتبت الكاف والفاء بعدها ... على جبهات القوم كي يعرفوا والرا
كما جاء في الدجال يكتب لفظها ... فيقرأ من يقرأ ومن لم يكن يقرا
فقد أشبهوه في معان كثيرة ... من الدّجل والإلحاد والبدع الأخرى
وما الفرق إلا أنهم في قلوبهم ... عماهم ودجال الورى عينه عورا
مقدمة للجيش عنه تقدموا ... وجند له من قبله مهدوا الأمرا

تقدم فيهم نائباً عنه عبده فأغوى الذي أغوى وأغرى الذي أغرى[1]

وقال عن رشيد رضا ومجلته المنار :

غدا ناشراً فيه ضلالات شيخه كما نشر الزّراع في أرضه البعرا

وقال :

وكم ضل رأياً من سقامة فهمه بأمر صحيح من شريعتنا الغرا
ولو سأل الأشياخ أدرك سره ولكنه مع جهله قد حوى كبرا[2]

وقال عن الثلاثة :

ثلاث أثاف تحتها نار فتنة ومن فوقها الإلحاد صار لها قدرا
وقد دخلوا حزب المسون بهمة بها حل كلّ من محافله الصدرا
ومذهبهم حكم الديانات واحد تساوى به الإسلام والملل الأخرى[3]

وهذا رجل آخر يكشف حالهم ويعلنها للناس وهو الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً يقول « أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين فقرب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات ، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة ، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني كما أنه على ما يقال وسيأتي إيضاحه في هذا الكتاب هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر »[4] .

وقال عن محمد عبده « فلعله وصديقه أو شيخه جمال الدين أرادا

---

(١) الرائية الصغرى : يوسف النبهاني من ص ٣٦٥ الى ص ٣٧٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٧ .
(٣) الرائية الصغرى : يوسف النبهاني ص ٣٨٤ .
(٤) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : مصطفى صبري جـ ١ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

أن يلعبا في الإسلام دور لوثر وكلفين زعيمي البروتستانت في المسيحية فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين وإنما اقتصر تأثير سعيهما على مساعدة الإلحاد بالنهوض والتجديد »[1] .

وقال عنه أيضاً «وكان من مضار الشيخ بالإسلام وعلمائه الناشئين بعده أنّ حملة الأقلام بمصر المنحرفين عن الثقافة الإسلامية كما أكبروا الشيخ وآراءه الشاذة التي انتقدتها في هذا الكتاب وأوجدوا من السمعة العلمية السامية ما لا يزال طنينه في أذن الشرق الإسلامي . ولا شك في تأييد القوة الماسونية له كان ذلك حثاً للذين يحبون الشهرة والظهور من شباب العلماء وكهولهم على نيل ما أرادوه بواسطة الشذوذ في الرأي والتزلف إلى الكتاب المتفرنجين بل الإنتماء إلى الماسونية »[2] .

ولا نريد أن نذكر بعد هذا موقف الشيخ عليش رحمه الله تعالى الذي كان يلاحقهم في صحن الأزهر بعصاه أو موقف أبي الهدى الصيادي الذي وصف جمال الدين بأنه « مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية »[3] أو اعترافات أتباعه أنفسهم بأن الأفغاني « برز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم زاعماً أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتحوير طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفلك ويتجاذبها الجو وأن القول بوجود محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقي الإنسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات »[4] أو وصف السلطان عبد الحميد لجمال الدين الأفغاني بأنه رجل الإنجليز ، وأنه مهرج[5] .

---

(١) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٤٤ .
(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٣٣ - ١٣٤ .
(٣) تاريخ الأستاذ الإمام : رشيد رضا جـ ١ ص ٩٠ .
(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ٤٣ .
(٥) مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة محمد حرب عبد الحميد ص ٦٧

لا نريد أن نذكر هذا وغيره ونفصله لأنه مما يطول بيانه ، وننتقل بعد هذا إلى ذكر موقف بعض علماء المسلمين غير المعاصرين لهم :

**ب ـ من بعدهم : ـ**

والحديث هنا أطول وأعمق من سابقه بكثير لكنه يختلف عنه أنه نابع عن دراسة لنتاجهم الفكري الذي أعلنوه للناس عبر مؤلفاتهم أو مجلاتهم لا عن مخالطة أو معاشرة لهم يدرك منها طباعهم وعاداتهم وأخلاقهم وشمائلهم التي لا تعلن عادة في المنشورات ولكن مع هذا لا يقل عنه منزلة وقيمة علمية كبيرة في نقدهم وإعلان حقيقتهم للناس ولن نذهب نعدد كل من نقدهم وكشف شيئاً من حقيقتهم فهذا ـ إضافة إلى أنه مما ليس في وسعنا ـ ليس من مقصودنا ومرادنا في هذا البحث ويشبع مرادنا أن نذكر موقف بعضهم .

فمن هؤلاء الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى الذي نقد منهجهم العقلي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾[1] حيث قال « إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الاستاذ الإمام رحمه الله على رأسها في تلك الحقبة ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة ، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها ، كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل ، ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير .

---

(١) سورة الفيل : الآية : ٤ .

. . . ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة من المبالغة في الإحتياط والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله . فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ كما شاع في تفسير تلميذه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ـ رحمهم الله جميعاً ـ شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه « المعقول » ! وإلى الحذر والإحتراس في تقبل الغيبيات . ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الإتجاه ، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف ـ هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير ، ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه ـ كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة »[1] .

ومن هؤلاء أيضاً الشيخ محمد حسين الذهبي حيث قال عن المدرسة العقلية الحديثة « أنها أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل ، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الإستبعاد والإستغراب ، إستبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة ، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن .

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهوداً عند العرب في زمن نزول القرآن ، وطعنت في بعض

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب جـ ٣٠ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

الحديث تارة بالضعف وتارة بالوضع ، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة في كل ما هو من قبيل العقائد أو من قبيل السمعيات مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثرة لا يستهان بها »[1] .

وقال « وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقله الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم فإنا نجده يغرق في هذه الحرية ويتوسع فيها إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف في أفكاره والغلو في آرائه »[2] .

وقال في موضع آخر ما خلاصته « الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري ، كما أنه لو صح في نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة »[3] .

وقال عن موقفه من حديث « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » وقد رواه الشيخان قال الذهبي عن موقف محمد عبده « فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له ثم يتخلص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة بجعل الحديث من باب التمثيل ، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء فقط »[4] .

وقال أيضاً « وهذا المسلك الذي جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه ومسلك الزمخشري وغيره من المعتزلة الذين اتخذوا التشبيه

---

(١) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٣٥ .
(٣) التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي جـ ٣ ص ٢٤١ .
(٤) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٤١ .

والتمثيل سبيلاً للفرار من الحقائق التي يصرح بها القرآن ولا تعجز عنها قدرة الله وإن بعدت عن منال البشر »[1] .

وقال « ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضرباً من التمويه والخداع وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله »[2] .

ولم يكن الشيخ الذهبي بالوحيد الذي ربط بين اتجاههم واتجاه المعتزلة بل حتى أنور الجندي الذي أشاد بهذه المدرسة وخدع بها قال « وإذا كان جمال الدين الأفغاني هو أول من فتح باب المنطق والفلسفة في الفكر العربي الحديث بحسبانه طريقاً إلى الدفاع عن الإسلام في مواجهة الفلسفات الحديثة على نفس المنهج الذي اتخذه المعتزلة فإن محمد عبده هو الذي عمق هذا الإتجاه حتى أطلق عليهما اسم « معتزلة العصر الحديث »[3] .

أما الدكتور علي محمد جريشه ومحمد شريف الزيبق فقالا عن المدرسة العقلية « ونحن ـ على عكس كثير غيرنا ـ نحسن الظن بأصحاب هذه المدارس ولا نقبل أن نسميهم عملاء وإن بدا منهم لون من الإتصال أو التعاون مع العدو المستعمر » « لكننا وإن نفينا عنهم «العمالة » فلا نستطيع أن ننفي عنهم « السذاجة » أنهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يضحكوا على الإستعمار ويمكروا به فإذا به أشد مكراً ظنوا أنهم يستطيعون أن يمتطوه ليسخروه لصالح الإسلام وامتطاهم الإستعمار ليسخرهم لصالح التغريب والتغيير الاجتماعي »[4] .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٤٩ .
(٢) المرجع السابق : جـ ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .
(٣) اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار : أنور الجندي ص ١٣٢ .
(٤) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي : علي جريشة ومحمد الزيبق ص ٢٠١

وقالا « وبهذه النية التي نحسن الظن بها ألف صاحب مدرسة العقل جمعية التقريب بين الأديان فيها المسلمون والنصارى واليهود . . . ولعله لم يدرك أن التقارب بين الإسلام والمسيحية واليهودية لا يمكن أن يكون إلا على حساب الإسلام . . لأنه الوحيد الدين الصحيح وغيره محرف . . ولعله لم يدرك أن المشركين حاولوا مع رسول الله ﷺ ذلك التقارب حين قالوا نعبد إلهك يوماً وتعبد آلهتنا يوماً فأنزلها رب السماء والأرض قاطعة حاسمة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ السورة »[1] .

وقالا : ـ « وأما الذي نأخذه على الرجل العالم : ـ

أولاً : اقتصاره من الإسلام على الإصلاح عن طريق التعليم فالإسلام ليس مجرد ثقافة فقط لكنه منهاج تربية ومنهاج حياة ، وليته في هذا الجانب استطاع أن يصلح .

ثانياً : أن الرجل وهو في موضع القدوة للمسلمين مالأ « الكافرين » الذين غصبوا الديار وما بعد الديار ! . . . ولا ندري هل كان الإمام يحفظ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . . . الآية ﴾ وهل قرأ غيرها من الآيات في نفس المعنى أم أن له فيه تأويلاً كتأويله في الملائكة أو في سجودهم أو في معصية آدم أو في خلق عيسى عليه السلام أو في الجن أو في السحر أو غير ذلك مما أعمل فيه عقله ( الكبير ) ليقول « بالرأي في كتاب الله ؟!! » لقد مضى الرجل إلى ربه فنترك له حساب سره وعلانيته لكننا إزاء الظاهر .

وعمره الذي أفنى في محاولة إصلاح التعليم بلوغاً إلى مقاومة الإستعمار أو إلى النهوض بالإسلام لا نملك إلا أن نتلو قول الله ﴿ قل هَلْ

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾[1] ونترك من قبل ذلك ومن بعد ذلك حسابه على الله لكننا نسوق ما نسوق ليعتبر أولـو الأبصار . . ويتذكر أولوا الألباب فلا تتكرر الصورة مرة أخرى »[2] .

أما الأستاذ غازي التوبة فعد من أخطاء محمد عبده دعوته للتقريب بين الأديان فقال « قد أخطأ محمد عبده في دعوته إلى التأليف والتقريب بين الأديان حتى صار مطية لهيئات ودول حاقدة على الإسلام والمسلمين ، وما ذلك إلا لأنه لم يلتزم حدّ الإسلام بل اتبع هواه فكان أمره فرطاً »[3] .

واستعرض الأستاذ غازي جملة الأخطاء والإنحرافات بعد أن قسمها إلى قسمين :

أ) نتائج سياسية : وعدّ منها :

١ ـ التعاون مع رياض باشا عميل الإنجليـز .
٢ ـ التعاون مع المحتل الإنجليزي .
٣ ـ الإصطدام مع عباس الثاني فقد كانت في مصر آنذاك سلطتان سلطة الإحتلال وسلطة الخديوية إحداهما مغتصبة والأخرى شرعية تمثلت الأولى في الثعلب العجوز اللورد كرومر والثانية في الخديـوي عبـاس الثاني .
٤ ـ تبرير وجود المحتل .
٥ ـ تكوين مدرسة سياسية باسم محمد عبده حيث وجد الإحتلال في محمد عبده وتلاميذه مدرسة سياسية تحقق أغراضه وتنفذ مآربه فرعاها ونماها .

---

(١) سورة الكهف الآيتين : ١٠٣ و ١٠٤ .
(٢) أساليب الغزو الفكري : ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .
(٣) الفكر الإسلامي المعاصر : غازي التوبة ص ٢٣ .

ب) النتائج الفكرية :

كان الإستعمار يشعر بتحول المجتمع المسلم نحو الحضارة الغربية وأخذه منها في كل مجال وتقليده لها في كل أمر ولكنه كان يؤمن - في الوقت نفسه بأن الهوة ستبقى قائمة بين الغرب والمسلمين من جهة ولا يؤمن الإنتكاس من جهة ثانية طالما أن الإسلام باق على طبيعته وحقيقته لذلك فقد صبّ جهوداً كبيرة كي يحوّر ويحوّل الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية من ناحية وتناولها دون التحرج من ناحية أخرى ،وقد وجد الإستعمار في محمد عبده ضالته التي تحقق له هدفه ذاك في التحويل والتحوير أو قل التي تبدأ له بالخطوة الأولى في ذاك التحويل والتحوير »[1]

والدكتور محمد محمد حسين غير مكثر في ميدان الكتابة لكنه رصين الإداء مقتدر في إستيفاء جوانب موضوعه ينظر إلى الأمور في عمق كما قال الأستاذ أنور الجندي[2] وقد كان لدراسته العميقة في دعوة الأفغاني وتلاميذه نتيجة خطيرة توصل إليها حيث يقول « الذي يبدو لي هو أن دعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها كان لها - ككل الدعوات السرية - ظاهر وباطن فظاهرها يخاطب الجماهير . وهو يصور ما يريد صاحب الدعوة أن يعرفه جمهور المسلمين مما يعجبهم ويقع من قلوبهم موقع الإرتياح والقبول ، وباطنها يمثل حقيقتها التي يخفيها أصحابها عن الناس ، ولا يكشفون الستر عنها قبل أن تحقق أهدافها بالوصول إلى مركز السلطة ومحمد عبده كان تابعاً لسيده الأفغاني أو خادماً له كما تعود هو نفسه أن يكتب إليه في بعض رسائله والأفغاني كان يريد أن يعيد الدور نفسه الذي لعبه الإسماعيلية من أصحاب الدعوات الباطنية التي تتستر وراء التشيع »[3] .

---

(١) الفكر الإسلامي المعاصر : غازي التوبة انظر الصفحات ٤٤ - ٦٥ .

(٢) مفكرون وأدباء : أنور الجندي ص ٢٦٤ .

(٣) الإسلام والحضارة الغربية : محمد حسين ص ٨٣ .

وقال عنهما أي الأفغاني ومحمد عبده « وكانا ـ ككل الثوار من أصحاب الدعوات السرية ـ يعلنان ما يحبه الناس ويستهويهم غير ما يبطنان مما ينكره الناس وما يبلغهم مطامعهم »[1] .

هذا الرأي ليس رأي رجل خراص وإنما رأي رجل وقف جزءاً كبيراً من نشاطه لدراسة حقيقتهم وجلاء أهدافهم حتى إذا ما وصل إلى درجة كبيرة من ذلك كشف للمسلمين ما توصل إليه مستنداً إلى حقائق ثابتة من أقوالهم أو أفعالهم التي لا تنكر وقد عرفت عنهم واشتهروا بها ، وهو حينما يكشف هذا لا يكشفه لحقد أو حسد وإنما يكشفه لغرض إسلامي نبيل هو أن لا تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناسٍ يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد حتى أن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إماماً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون »[2] .

إذن فنقده نقد عارف مطلع ، هدفه الإصلاح ، وهذا ما نبحث عنه .

ونختم الحديث هنا برأي صنيعة من صنائعهم وأثر من آثارهم هو الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي لكنه مع هذا أبى إلا أن يقول الحق في منهجهم .

أما أنه متأثر بهم معجب فشاهده أنه قال في إهداء كتابه النظرات « إن كان لي في هذا السفر فضيلة يعجب بها الفاضل أو رأي يرضى عنه العاقل ، أو ديباجة يثني عليها الأديب فلا يد فيها لأحد من الناس غير هؤلاء الرجال الثلاثة ولي نفسي والدي السيد محمد لطفي ووليّ عقلي أستاذي الشيخ

---

(١) مجلة « رسالة الطالب المسلم » لقاء مع الدكتور محمد محمد حسين ص ١٠٠ العدد الأول ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨ هـ ـ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٤٩ ـ ٥٠ .

محمدعبده،ووليّ أمري سيدي سعد باشا زغلول أولئك الذين أهدي إليهم كتابي لأنه حسنة من حسناتهم وصنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعايتهم وأولئك الذين أحسنوا إلي في هذه الحياة إحساناً لا أزال أذكر أياديهم البيضاء فيه حتى يعتاق نفسي حمامها وعظامي رجامها »[1] إلخ .

ولكن هذا الولاء لوالده ولا دخل لنا فيه ، ولمحمد عبده ولسعد زغلول وهو مرادنا لم يمنعه من قول الحق في نقد منهج محمد عبده حيث عرض لذكره في مقالة عنوانها « يوم الحساب » تخيل فيها أنه قد انتقل من العالم الأول إلى العالم الثاني ورأى كأنه بعث بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم فألهم أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب ثم تخيل حواراً جرى هناك بين محمد عبده وقاسم أمين عاتب فيه الأول الثاني على دعوته إلى السفور فإذا بقاسم أمين يجيب « أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك : إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ . . وإنك نصحتني بما لم تنصح به نفسك ، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول ، وأنت أردت أن تحيي الإسلام فقتلته ، إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت وفهموا غير ما فهمت فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا مخرفين ، وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين .

أوّلت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار ، وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها جملة واحدة ! وقلت لهم إن الولي إلّه باطل والله إلّه حق فأنكروا الألوهية حقها وباطلها ، فتهلل وجه الشيخ وقال له ما زلت يا قاسم في أخراك مثلك في دنياك لا تضطرب في حجة ولا تنام عن ثأر »[2] .

---

(١) نقل لي هذا النص شيخنا وأستاذنا عبد الفتاح أبو غده جزاه الله خيراً عن الطبعة الأولى من كتاب النظرات لمصطفى لطفي المنفلوطي سنة ١٣٢٨ هـ الصفحة الأولى .

(٢) النظرات : مصطفى لطفي المنفلوطي : جـ ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

حسبك بهذا الإتهام من صنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعايتهم وخلاصة ما نقلنا من نقد لهم هنا أنهم : ـ

١ ـ غير ملتزمين للشعائر الإسلامية من صلاة أو حج . . إلخ .
٢ ـ إن تعاونهم مع الإحتلال ودول الإستعمار إما لأنهم عملاء كما يقول بعض النقاد أو سذاجة منهم كما يقول آخرون .
٣ ـ إن لهم دعوة باطنية يظهرون منها ما يخالف حقيقتها وباطنها .
٤ ـ إنهم جاروا مذهب الإعتزال في كثير من مذاهبهم حتى أطلق عليهم أنهم معتزلة العصر الحديث .
٥ ـ إنهم الوسيلة التي اتخذها الإستعمار والمستعمرون لتحويل وتحوير الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية .
٦ ـ إن منهجهم في التفسير ضال ومنحرف .

كل هذا وغيره كثير كشفه الناقدون لهم لكن هذا كله ، ولكنهم كلهم لم يكن لهم من الأثر مايذكر ، في التقليل من رواج حسن سيرتهم بين الناس وانخداع العلماء بهم قبل العوام حتى وصلوا إلى درجة لا يجرؤ عالم من العلماء على نقدهم علانية أمام ملأ من الناس في مجتمعهم .

لم يكن السبب في هذا سرّاً لا يعلمه أحد بل علمه وخبره الكثيرون وأعلنوه للناس أيضاً ، قالوا ان السبب أن الإستعمار يقف خلفهم ويؤيدهم ويساند دعوتهم ويحميهم أينما ساروا ، ويحمي أفكارهم ومبادئهم في اللحظة التي يحتاجون فيها إلى الحماية ويسعى إلى ترويج آرائهم بين المسلمين وإيصال صوتهم ودعوتهم إلى الناس .

وجنّد الإستعمار جنوده من المستشرقين للثناء عليهم ومدحهم حتى يروج ذلك بين الكتاب المسلمين فينقلوه عنهم نقل الإعجاب والتأييد « والإفتخار » برجلين أو رجال من الشرق نالوا رتبة عالية عند رجال الغرب في المباحث الدينية ، وهي رتبة تهفو إلى بلوغها أنظار طلاب الشهـرة ولو على

حساب الدين فأخذوا ينقلون ويروجون أفكارهم ومبادئهم لا نقل الفاحص الناقد وإنما نقل المؤيد المسلم لهم ما يقولون .

وبهذا راجت بين الناس أفكارهم وطغت على أذهانهم مبادؤهم فلا يسمعون صيحة « مخنوق » ضدهم ولا همس هامس في نقدهم ، ولا صرخة محذّر بين صيحات المخدوعين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ والْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1] .

حتى ألجأوا بعض من يريد قول الحقيقة إلى قولها مشوبة بالثناء عليهم ومدحهم وتمجيدهم تقرباً إلى المخدوعين بهم .

ذلك أثر من آثار الإستعمار ، ونتيجة لدراسة نقدية مزعومة من المستشرقين لا ندعي ذلك إدعاء ونثبت هنا ما يقيم أساسه :

---

(١) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

## ثالثاً : موقف الاستعمار البريطاني منهم واعترافه بما قدموه له من خدمات

سبق أن ذكرنا ما يثبت حماية الإستعمار لهم ودفاعه المستميت عن دعوتهم ، ونعيد هنا للمناسبة بعضه ونزيد عليه .

ونبدأ أول ما نبدأ برجل أعلن عداءه للإسلام حيث قال جئت ( إلى مصر ) لأمحو ثلاث القرآن والكعبة والأزهر [١] .

ترى من الذي عاون هذا الرجل لتحقيق هدفه ؟! إنهم ولا شك رجال المدرسة العقلية من حيث يدرون ( فيكونوا عملاء ) أو من حيث لا يدرون ( فيكونوا سذاج ) .

قال كرومر في تقريره السنوي لعام ١٩٠٥ م عن محمد عبده « كان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية ولآرائه المتحررة المستنيرة أثرها في جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى »[٢] .

وقال أيضاً « لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد إليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الإصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم إذا ساروا فيه فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوروبيين »[٣] .

---

(١) الخنجر المسموم : أنور الجندي ص : ٢٩ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ص ٧٨ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام : محمد رشيد رضا جـ ٣ ص ٤٢٦ .

وقال أيضاً « إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين ، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي »[١]

وقد امتثل هو ما دعا إليه فمال إليهم وعطف عليهم وقدم لهم كل عون وتشجيع فكانوا له ( حلفاء طبيعيون ) فوجبت عليه حمايتهم .

صرح اللورد كرومر بنفسه « إن الشيخ محمد عبده يظل مفتياً في مصر ما ظلت بريطانية العظمى محتلة لها »[٢] .

وقال السِيد رشيد « وقد تحقق أن اللورد كرومر قال للخديوي إن كان تحريك بعض المشايخ ضد المفتي لأجل فصله من الإفتاء فاسمح لي بأن أقول أنه ما دام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصر فإن الشيخ محمد عبده يكون هو المفتي حتى يموت »[٣] .

هذه بعض حمايته في الداخل أما إذا ذهب إلى الخارج كالآستانة مثلاً فإنه يكتب إلى تلميذه السيد رشيد « ان السلطان لا يستطيع حبسي لو أراده وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ولذلك أسباب لا أحب ذكرها الآن »[٤] ولكن السيد رشيد يذكر السبب في هذا « وهم لا يجهلون أن السفارة البريطانية كانت بالمرصاد وأنها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضاً »[٥] .

بل إن الإحتلال الإنجليزي كان عاملاً أساسياً من عوامل عودة محمد عبده من المنفى في الشام إلى مصر وقد صرح اللورد كرومر بهذا

---

(١) Modern Egypt: Cromer p. 180

(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٥٠١ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٥٦٤ .

(٤) الأعمال الكاملة لمحمد عبده : جمع محمد عماره جـ ١ ص ١١٧ .

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام : جـ ١ ص ٨٦٠ .

في كتابه مصر الحديثة حيث قال « إن العفو صدر عن محمد عبده بسبب الضغط البريطاني »[1] .

هذه إشارة تكفي اللبيب في بيان مدى تعاون إمام المدرسة العقلية الحديثة وأستاذها مع الإحتلال ومدى حمايتهم له وهو أمر له معناه .

## ترحيب المستشرقين بالمدرسة ونتائجها

كان لأفكار المدرسة العقلية صدى كبيراً في دراسات المستشرقين ، والحقيقة أنا لا ندري من أين نبدأ وإلى أين ننتهي بين عبارات الثناء والترحيب بهم من المستشرقين ولعلنا نكتفي ـ أيضاً ـ بالإشارة .

فهذا جب يقول عنهم « لسوء الحظ ظل قسم كبير من المسلمين المحافظين ولا سيما في الهند لا يخضعون لهذه الحركات الإصلاحية المهدئة وينظرون إلى الحركة التي تزعمتها مدرسة عليكره بالهند ومدرسة محمد عبده بمصر نظرة كلها ريبة وسوء ظن لا تقل عن ريبتهم في الثقافة الأوروبية نفسها »[2] ثم وضح هذا المستشرق الإنجليزي جب دور المدرسة العقلية بقوله « إن في كل البلاد الإسلامية ـ باستثناء شبه جزيرة العرب وأفغانستان وبعض أجزاء من أواسط إفريقيا ـ حركات معينة تختلف قوة واتساعاً ترمي إلى تأويل العقائد الإسلامية وتنقيحها » ثم قال « وقد اتجهت مدرسة محمد عبده بكل فروعها وشعبها نحو تحقيق هذا الهدف » ثم ذكر « أن الأب ( بانيرث ) المبشر يرى أن حركة الإصلاح الإسلامي ـ على النحو الذي تسير فيه الآن يجب أن تقابل من المسيحية الغربية بالتشجيع »[3] .

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث : غازي التوبة ص ٤٥ .

(٢) إلى أين يتجه الإسلام : للمستشرق جب عن مجلة المجتمع العدد ٣٦٤ في ٩ رمضان ٩٧ هـ ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦٣ عن الفكر الإسلامي المعاصر : غازي التوبة ص ٦١ ـ ٦٢ .

ولعله يكفي هنا أن ننقل عن جب رأيه في تلاميذ محمد عبده حيث يقول « إن تلامذته هم من أولئك الذين تعلموا على الطريقة الأوروبية وذلك من ناحيتين أولاهما إن ما كتبه الشيخ كان بمثابة درع واقية للمصلحين الإجتماعيين والسياسيين فإن عظمة اسمه قد ساهمت في نشر أخبار لم تكن تنشر من قبل ثم إنه قد أقام جسراً من فوق الهوة السحيقة بين التعليم التقليدي والتعليم العقلي المستورد من أوربا الأمر الذي مهد للطالب المسلم أن يدرس في الجامعات الأوروبية دون خشية من مخالفة معتقده وهكذا انفرجت مصر المسلمة بعد كبت ، فقد ساهم الشيخ محمد عبده أكثر من أي شخص آخر في خلق اتجاه أدبي جديد في إطار الروح الإسلامية »[1] .

أما الجاسوس البريطاني الفريد سكاون بلنت فيصف دعوتهم بأنها « الإصلاح الديني الحر » ويصفهم بأنهم « زعماء الإصلاح في الأزهر » ويصف مدرستهم بأنها « تلك المدرسة الواسعة التقية »[2] .

وقال عن الأفغاني « ومن أغرب ما يروى أن الفضل في نشر هذا الإصلاح الديني الحر بين العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغاني »[3] .

وقال عن محمد عبده أنه « رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام ويجب أن لا يتوهم أحد أني إذ أستخدم هذه الألفاظ ألقي القول على عواهنه أو أبالغ مثقال ذرة ولكني أقولها معتمداً على معرفتي بأخلاقه في ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته في أول الأمر معلماً دينياً ثم قائداً

---

(١) الإتجاهات الحديثة في الإسلام : جب ص ٧٠ .
(٢) التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر : الفرد سكاون بلنت ص : ٧٦ .
(٣) المرجع السابق : ص ٧٧ .

لحركة الإصلاح الإجتماعي . . . وأخيراً حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد »[1] .

وتحدث عن هدف الأفغاني فقال « كان همه أن يطلق العقول من الأغلال التي قيدتها طوال الأجيال الماضية » وأن هذا « يماثل ما حدث من إحياء المسيحية بأوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر »[2] .

وهذا جولد زيهر يبين قصد مدرسة المنار بأنه « تحقيق قدرة الإسلام على الحياة بين تيارات العصر الحديث عن طريق إصلاح الأحوال المغلولة بقيود المذاهب الجامدة »[3] واعتبر السيد جمال الدين الأفغاني المحرك الأول لهذا الإتجاه[3] .

وحسبي أن أقف هنا في بيان الصراع بين المحذرين منهم وبين الإستعمار والمستشرقين ، ولا يزال ـ حتى ساعتنا هذه ـ صوت الإستعمار هو الأكثر رسوخاً في أذهان الناس .

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٨ .

(٣) مذاهب التفسير الإسلامي : جولد زيهر ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .